الدراسات والبحوث

أفكار حول مواجهة النزعة الانعزالية في الأدب

د. أحمد أبو مطر

التربية المنهجية في المستقبل:

دراسة اسقاطية لخصائصها ومكوناتها المحتملة

د. محمد زياد حمدان

تعريفات ومصطلحات في البحث التربوي

ترجمة:
د. حسام الخطيب

الشعرية العربية
بين
عنت المناطقة وعمودية التراث

د. ياسين الأيوبي

أفكار حول مواجهة النزعة الانعزالية في الأدب

د. أحمد أبو مطر

اهمية المشروع القومي الوحدوي العربي :

في البداية لا بد من تقرير حقيقة اساسية حول اهمية وضرورة المشروع القومي العربي الذي يطمح للوصول الى تجسيد فكرة القومية العربية في كيان سياسي عربي واحد موحد ، هو ما اصطلح على تسميته بـ « الوحدة العربية » ، وذلك لان النزعة الاقليمية والانعزالية سواء في الادب ام الفكر ام السياسة ، انما توجه في الاساس لنقض المشروع الوحدوي ، وصولا الى كيانات اقليمية متعددة ، لكل منها استقلالها الخاص المميز ، مع الاجتهاد المصطنع من اجل البحث عن خصائص متميزة لكل كيان واقليم .

ولما كان مشروع الوحدة العربية قد استأثر في العقود الماضية على جهد وفكر العديدين من السياسيين والمفكرين ، لان فيه الحل لكافة مشاكل الامة العربية المجزأة حاليا ، وجدنا أن تأصيل الفكر الخاص بهذا المشروع الوحدوي بالاضافة الى جهود السياسيين والمفكرين ، مايزال بحاجة الى دعم جيد آخر هو (المجهود الادبي) ، لما للادب من دور خطير في صياغة وجدان الناس وطموحاتهم وتوجهاتهم . وهذا يعني بدوره اهمية مواجهة النزعات الانعزالية في الادب ، لانعكاسها المؤثر على الجانب السياسي الذي يطمح لتجسيد فكرة الوحدة العربية ، وهذا يعني ايضا ارتباط النزعة الانعزالية في الادب بمشروع سياسي آخر ينقض المشروع الوحدوي العربي.

دور الادب :

لقد اصبح من تكرار القول ، الاقرار بأن للادب دورا مميزا في صياغة وجدان الناس وتوجهاتهم ، لان الادب عندما يخاطب الناس وعقولهم ، انما يجد من الاستجابة ما لا يجده غيره من الاساليب . وليس مبالغة القول أن بدايات النهوض القومي في تاريخ العرب الحديث انما بدأت في الادب ، والشعر بالذات . كانت القصيدة الشعرية التي كتبها ابراهيم اليازجي عام ١٨٥٧ (تقريبا) أشبه ماتكون ب (بيان سياسي عربي) تلك القصيدة التي يقول في مطلعها :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

ولقد تحدث جورج انطونيوس في كتابه (يقظة العرب) عن دور هذه القصيدة وتأثيرها في نفوس الجماهير آنذاك ، موضحا كيف تلقفت الجماهير هذه القصيدة ، وتداولتها دون معرفة صاحبها .. يقول جورج انطونيوس « لقد اتخذت هذه القصيدة صورة النشيد الوطني ، والقصيدة في جوهرها تحريض للعرب على الثورة ... استطاعت هذه القصيدة أن توقظ العاطفة العميقة في الشعب ... فكانت اول نشيد لحركة التحرر السياسي ، وكانت الثمرة المباشرة لاول تكتل عربي ، اتحدت فيه جميع العقائد لاحياء الثقافة العربية القديمة » .

اذا كان هذا هو دور الادب عندما يكون في خدمة الخط القومي العربي التقدمي ، فلنا ان نتصور نفس الاهمية والخطورة اذا كان الادب في خدمة الخط الاقليمي الانعزالي ، أي المضاد والمعادي للقضايا القومية العربية ، الواضع نفسه في خدمة الثورة المضادة متمثلة في الاقليمية والانعزالية ..

بدايات الفكر الانعزالي :

نحدد بداية المقصود بالنزعة الانعزالية في الادب والفكر ، بانها تتمثل في تلك الادبيات والافكار الداعية الى تفتيت الاقطار العربية على اعتبار انها ذات خصائص ومقومات متباعدة ، لا يمكن جمعها ضمن الاطار القومي المسمى سياسيا « الوحدة العربية » . وينتج عن ذلك ان نجد انفسنا امام امم مختلفة من قوميات مختلفة : الامة المصرية والامة السورية والامة العراقية ... الخ ، وذلك على اعتبار الاصول والقوميات المتنوعة ، كالفرعونية في مصر والفينيقية في بلاد الشام والأشورية في العراق . ويتضح من ذلك ان النزعة الانعزالية ، تهدف في الاساس الى نسف مقولة القومية العربية بمعناها الشامل ، كما استقرت في اطروحات الفكر القومي المعاصر ، على انها تشمل الوطن العربي من المحيط الى الخليج ، مشكلا أمة واحدة هي الامة العربية .

وانطلاقا مما سبق ، ليس من السهل تحديد البدايات الاولى لكافة النزعات الانعزالية التي عرفتها المنطقة العربية ، رغم ان المتتبع للتاريخ العربي ، يستطيع أن يرتد بها حركة (الشعوبية) التي ظهرت في العصر الاموي ، وتجلت بعدائها الشديد الواضح المعلن لكل ماهو عربي في العصر العباسي ، وقد حاربت (الشعوبية) في هذا العصر العرب : جنسا وثقافة وحضارة ، واخذت مداها في السلوك والمعاملة والادب والفكر مما جعلها تيارا ادبيا وفكريا قائما بذاته في العصر العباسي ، يحط من قيمة العرب وكل نتاجاتهم ، ويعلي من شأن الفرس والترك وكل ما لهم .

اما في العصر الحديث ، فيمكن اعتبار الدعوة الى (الفرعونية) في مصر و (الفنيقية) في بلاد الشام ، ولبنان بالذات ، اهم الدعوات الانعزالية التي ماتزال تطل براسها من فترة الى اخرى ، تحاول سلخ هذين القطرين عن محيطهما العربي ، باحثة عن خصائص ومميزات مصطنعة لهذين القطرين ، تجعل لكل منهما قومية مختلفة لا تمت بصلة للقومية العربية ، على اعتبار ان شعبي هذين القطرين ليسا من الاصول العربية .

الفرعونية في مصر :

من اهم الدعوات الانعزالية في المنطقة ، الدعوة الى الفرعونية في مصر، تلك التي تهدف الى اعادة مصر الى اصولها الفرعونية وسلخها عن القومية العربية ، على اساس ان الاصل الفرعوني لمصر والمصريين مايزال ممتدا ، رغم مرور مايزيد على الف عام منذ دخول مصر الاسلام بعد الفتح العربي، وتكلمها العربية لغة لعموم سكانها ... وهذه الخطورة تاتي من جانبين :

الاول : كون هذه الدعوة قد وجدت تطبيقات لها في الادب والفكر ، ولدى اسماء مشهورة ومعروفة بتأثيرها ليس في مصر وحدها ، ولكن في عموم الوطن العربي ، ولكون انصار هذه الدعوة قد تجراوا في السنوات الاخيرة على الحديث الصريح المعلن عن (فرعونيتهم) بعد ان كانت مجرد همس وراء الكواليس .

الثاني : كون هذه الدعوة تستهدف اكبر قطر عربي ، وهو مصر ، التي تشكل الثقل الاساسي والمركزي في الوطن العربي ، سكانا ومركزا وقوة وعلما . وهذا العزل لمصر هدف ــ استعماري منذ معاهدة ١٨٤٠ .

لذلك ، فمن المفيد أن نرصد بعض مظاهر البدايات للنزعة الفرعونية، وصولا الى تطبيقاتها المعاصرة ، انتهاء بافكار الرد عليها ومواجهتها .

١ ــ المصرية والفرعونية عند لطفي السيد :

احمد لطفي السيد من المفكرين المصريين الذين كان لهم دور وتاثير في الساحة السياسية والادبية والفكرية . ومنذ بداية القرن العشرين عرف لطفي السيد بدعوته الرامية الى حياد مصر وعزلتها عن العرب . وقد كان جريئا في دعوته هذه ، رغم انه كان صوتا وحيدا معزولا في بداية الامر ، وتحدي عموم الراي العام المصري في مواقف متعددة . في الحرب التي شنتها ايطاليا على ليبيا عام ١٩١١ ، دعى المصريين علنا الى نفض يدهم من هذه الحرب ، فلا دخل لهم بها ، وعليهم اتباع (سياسة المنافع لا سياسة العواطف) ، حتى الحزب الذي كان سكرتيره العام (حزب الامة) رفض هذا الصوت ، وكان موقفه مع الشارع المصري الذي اندفع يؤيد ليبيا ، ويعمل مافي جهده لتقديم المساعدات المالية والبشرية لها في حربها ضد الطليان(١) . واذا كان من الممكن ان يدافع احد عن موقفه هذا على اعتبار ان دولة الخلافة العثمانية آنذاك هي المسؤولة عن الدفاع عن ليبيا الواقعة تحت حكمها ، فليس بوسع احد ان يدافع عن موقفه من فكرة الوحدة العربية التي طرحها مع مشروع الجامعة العربية الذي قال فيه عام ١٩٣٨ : « ان السعي لتاليف تحالف من هذا النوع وهم من الاوهام » .(٢)

لم تكن دعوة لطفي السيد عرضية هامشية ، اذ جعل منها « دعوة متصلة تهدف الى تمييز شخصية مصر وتأصيل الشعور بها وتنقية هذا الشعور من تداخل افكار معينة ، وسطحية مفاهيم بعينها . ان مصر هي قبل كل الاعتبارات مهما بلغت قوتها . وقد ايقظت دعوته هذه النفس المصرية وردتها الى اعماقها الحقيقية(٣) . ولما كانت مكانته كبيرة ، وتأثيره واسعا في الحياة الفكرية والسياسية المصرية ، « تأثرت بدعوة لطفي السيد الحياة الفكرية في مصر ، فقال الدكتور طه حسين بفرعونية مصر دما وفكرا وهوى وروحا . ونادى الدكتور احمد ضيف باقليمية الادب ، وانتهج الاقليمية درسا بالجامعة الاستاذ امين الخولي الذي كانت مصر محور

دراساته في البلاغة والدين وخلعت (المصرية) طابعها على شتى مناحي الحياة في الوادي وخاصة في الادب باعتباره مرآة الشعور ، فاتجهت اليها موضوعات خاصة في القصة ، بل ان من آثارها فيه الحنو على العامية لغة الشعب المصري »(٤) . ولقد كان كتاب « في الادب المصري » لامين الخولي الصادر في تلك الفترة ، تطبيقا ميدانيا لافكار لطفي السيد في ميدان الادب ، اذ بنى كتابه على ما يسمى النظرية المكانية او تأثير المكان في الادب ، بمعنى أن ــ للمكان سماته الخاصة التي تميز ادب كل قطر عن غيره ، وحسب هذه النظرية نجد انفسنا امام آداب عربية مختلفة لا تشبه بعضها ، ولا رابط بينها ، فكل منها يعبر عن شخصية المكان الذي يعيش وينشأ فيه ،وهذايعني اننا امام : الادب المصري والادب الفلسطيني والادب العراقي والادب الجزائري ... الخ متناسيا ان الاقطار العربية هذه تشغل حيزا مكانيا واحدا ، يعيش فيه شعب عربي واحد ، له لغة واحدة ، ومصالح ورغبات واحدة ، مما يجعل الادب المنتج في اي قطر يعبر عن تنويعات الانسان في كافة الاقطار .

٢ ــ اصوات فرعونية اخرى :

يكتب ابراهيم جمعة في السياسة الاسبوعية عن الادب القومي ،منكرا عروبة مصر والمصريين قائلا : « الذي اعرفه اننا لسنا اولادا لهؤلاء العرب. والذي اعرفهايضا ان البيئة التي نسكنها منذنطقنا بالضاد ليست عربية» . « والذي نعرفه جميعا اننا رغم اختلاط العنصرين العربي والمصري . ورغم انتحار اللغة المصرية امام لغة العرب ، قد كونا شعبا معروفا ذا عقلية وطبيعة متميزة جد التمييز عن العقلية والطبيعة العربية » .(٥)

اما محمد عبد الله عنان ، فيقول عن فكرة الوحدة العربية والجامعة العربية : « لقد صرحنا برأينا اكثر من مرة في شأن فكرة الجامعة العربية. فهي على ما يصورها الغلاة من دعاتها في نظرنا امنية خيالية لا تقوم على أسس .. ومن الخطأ البين ان تنظم مصر في سلك البلاد العربية اذا تعلق

الامر بالناحية القومية . فالقومية المصرية كما قدمنا قومية أصيلة ... ومع هذا الاندماج السياسي التام ، مصر لم تكن عربية فقط ، وانما كانت الى جانب شقيقاتها العربيات تحتفظ دائما بمصريتها القومية العميقة ، بل كانت فوق ذلك تطبع الحياة العامة لهذه الشقيقات في كثير من الاحيان بألوان مصرية عميقة »(٦) .

وقد انساق مع هذا التيار الانعزالي عديدون امثال : توفيق الحكيم وحسين فوزي (سندباد مصري) ومرقص سميكة ومحمد الاسمر ، مما جعل من هذا التيار الداعي الى القومية المصرية « تيار اقليمي فرعوني يؤمن أن الشخصية المصرية تستمد جذورها الاساسية الصحيحة من الحضارة الفرعونية القديمة . وان كل الشعوب التي وفدت على مصر انما هي شعوب جاءت من أجل الغزو والاستعمار بما في ذلك العرب . فالعرب في مصر مثل اليونانيين والرومان والفرس والاتراك ، كلهم غزاة ويجب على مصر التغلب على آثارهم نهائيا . وان تعود الى شخصيتها الاصيلة وهي الشخصية الفرعونية »(٧)

ثورة يوليو والفكرة العربية :

شكلت ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ضربة قاضية للتيار الانعزالي في الحياة المصرية . في البداية كان زعيم الثورة جمال عبد الناصر قد كتب في (فلسفة الثورة) عن الدوائر الثلاث التي تتجاذب مصر ، وهي الدوائر : العربية والاسلامية والافريقية ، وفي الوقت ذاته ، أكد أن حرب فلسطين عام ١٩٤٨ و حصاره في الفالوجة ، كانا من اسباب تفكيره في الثورة . بعد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ حسم عبد الناصر خيارات مصر لصالح الدائرة العربية ، ونص في دستور ١٩٥٦ على أن مصر جزء لا يتجزأ من الامة العربية . وكانت وحدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨ تطبيقا ميدانيا لافكار عبد الناصر الوحدوية ، وتتويجا لتوجهاته القومية العربية ، فانعكس ذلك على النتاجات الادبية والفكرية ، مما جعل التيار العربي القومي هو السائد

في الثقافة والفكر في مصر ، وفي الوقت ذاته انحدار التيار الانعزالي ، ليس هذا فقط ، بل انخراط كتاب هذا التيار في الجـو الناصري السائد ، والتنظير لاعمال عبد الناصر واطروحاته ، عن اقتناع او مجاملة ومداورة.

التيار الانعزالي والخط السياسي :

مما سبق ، يتضح ان الخط السياسي له علاقة بما يطرح من افكار ، او حسب المقولة المعروفة ، فان الفكر السائد هو فكر الطبقة السائدة ، وينطبق ذلك على التيارالفكري الانعزالي ، الذي غاب وتوارى في زمـن عبـد الناصر ، لان فكـر عبد الناصر السائد كان الفكـر القومي العربي الوحدوي ، الذي آمن بوحدة الامة العربية ، وضرورة توحدها في كيـان سياسي واحد موحد . وعند مجيء السادات الى السلطة في عام ١٩٧٠ ، وسيطرته على زمام الامور ، وتصفية معارضيه في مايو ١٩٧١ ، قـام بنقلة معاكسة في تاريخ مصر وفكرها ، اذ بدا عهده بالهجوم على المرحلـة الناصرية سياسيا ، فكان اول من تجاوب معه في هذه الحملة مفكـرو التيار الانعزالي ، وفي مقدمتهم توفيق الحكيم في كتابه المشهور (عـودة الوعي) . وعقيب زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧ ، وتوقيعه معاهـدة الصلح مع العدو الصهيوني عام ١٩٧٨ ، كان ذلك يعني نظريا وعمليـا سلخ مصر عن محيطها العربي ، لان الاتفاقيات مع العدو الصهيوني ، تمت على حساب حقوق الشعب العربي الفلسطيني ، واقرت ان للعدوالصهيوني الاولوية مـع مصر ، وعلى مصر ان لا تقيم وزنا لاية اتفاقيات قديمة او جديدة تتعارض مع مصالح العدو وامنه .

اتبع السادات توقيعه لاتفاقيات الصلحمع العدو الصهيوني والاعتراف به ، بحملة واسعة مسعورة ضد الاقطار العربية والامة العربية ، فكـان هذا الضوء الاخضر لمفكري التيار الانعزالي ، بالتشمير عن سواعدهم ، والعودة لقناعاتهم القديمة التي قتلها عبد الناصر ، فاذا نحن امام حملـة

منظمة تدعو للاقليمية المصرية ، والانعزال عن الامة العربية والتشكيك أساسا في القومية العربية ووحدة امتها .

توفيق الحكيم وحياد مصر :

نتيجة لتوجهات السادات السياسيــة انطلقت الافكــار والتيارات الانعزالية ، وكانت فكرة (حياد مصر) من الافكار الرئيسية التي ركــز عليها التيار الانعزالي ، ليبث من خلالها سمومه ضد الامة العربية وفكرة القومية العربية ، وكما كان توفيق الحكيم اول من اطلق الحملة ضــد عبد الناصر وسياسته الداخلية والعربية ، نجده اول مــن أطلق فكرة (حياد مصر) ، وبذلك يكون توفيق الحكيم فارس الافكار الانعزالية التي سادت مرحلة تطبيع العلاقات مع العدو الصهيوني ، وكان يتجاوب فيهــا مع التوجهات الرسمية للنظام الحاكم ، بدليل ان هذه الافكار لم يكتب فيها لا صراحة ولا تلميحا قبل عام ١٩٧١ في المرحلة الناصرية .

بدأ الحكيم دعوته لحياد مصر في مقالة كتبها في جريــدة الاهــرام (٣ مارس ١٩٧٨) ، جاء فيها : « لن تعرف مصر لها راحة . ولــن يتم لها استقرار ولن يشبع فيها جائع الا عن طريق واحد ، يكفل لها بذل مالها لاطعام الجائعين والمحتاجين ، وتكريس جهدها للتقدم بالمتخلفين ، وتوجيه عنايتها الى الارتقاء بالروح والعقل في مناخ الحرية والامن والطمأنينة .. وهذا لن يكون ابدا مادامت الاموال والجهود تضيع بعيدا عن مطالب الشعب ، بدافع من مشكلات خارجية ودولية ، تغذيها الاطماع الداخلية والشخصية .. ما هو الطريق اذن الى واحة الراحة والاستقرار وطعام المعدة بالروح والعقل ؟ ان هذه الواحة المورقة المزهرة اسمها (الحياد) . ان الحيثيات التي يطرحها توفيق الحكيم لحياد مصر ، ترتكز على استغلال معاناة المواطن المصري اليومية ، فهو يزين لهذا المواطن ان الحياد هــو طريقه المؤكد لحل كافة مشاكله الاقتصادية والاجتماعية ، وهو يلتقي في

ذلك مع دعوة الرخاء التي منى بها السادات الشعب المصري من وراء السلام مع العدو الصهيوني ، فقد كان يركز في كافة خطبه واحاديثه على ان مرحلة السلام هذه سوف تحمل الرخاء والامن لكافة المواطنين .
أما نوع الحياد الذي يريده الحكيم ، فهو « حياد مثل حياد سويسرا والنمسا ... هذا الحياد الذي انقذهما من المنازعات والتيارات التي ألقت بكثير من الدول في خضم بحار مضطربة من السياسات المتعارضة»(٨) ولم يكتف الحكيم بهذه الدعوة ، بل واصل الحديث في جوانبها المتعددة والرد على معارضيه ، فكتب اكثر من مقال ، طرح فيها الافكار التالية :

(١) الربط بين الحروب التي خاضتها مصر ـ ويرى انها خاسرة ـ وبين الرغبة في زعامة العالم العربي ، في الوقت الذي اصبح الراي لمن في يده المال ، وبعد « ان افتقرت مصر وجاع اهلها وتسول ابناؤها في البلاد الغنية ، نظرت مصر الى الزعامة فوجدت كل بلد ثري يدعيها لنفسه حتى ولو لم يبذل في الحروب قطرة دم . اما نبض جماهيرنا فقد اضعف فيه الجوع قوة الكلمات الرنانة عن الزعامة والقيادة والالتزامات والواجبات واصبح همها ان تبحث طول يومها عن رغيف عيش او شريحة لحم او قطعة جبن امام المجمعات »(٩) .

(٢) الادعاء بان الجميع يرغبون في « ان تبقى مصر هي الدابة التي يركبها ويحمل على ظهرها مصالحه ، ويوجهها في الطريق الذي يرسمه»(١٠) مع تأكيده على ان ارتباط مصر بالعالم العربي هو الذي جر عليها الخراب والفقر والهوان ، وهذا العالم العربي (الاشقاء) يطلق عليه : (الرافضين او الحاسدين او الجاحدين او المتعبين .

(٣) يعتبر ان عمل الخبرات المصرية في الاقطار العربية مؤامرة عربية ، تهدف الى نقل زعامة مصر الحضارية الى الاقطار المذكورة ، اذ ان «بعض الاشقاء الحاسدين لزعامة مصر الفكرية ، قد انتهزوا فرصة وقوع مصر على ارض الضعف والفاقة والاحتياج ، فعملوا على نقل زعامة مصر

الحضارية الى بلادهم باغراء الكثيرين من اساتذة مصر ومفكريها وفنانيها بالاموال المكدسة في خزائنها العامرة ، ليتركوا مصر ويقيموا النهضة الثقافية خارجها . وانشأوا هناك المجلات والصحف العلمية والادبية بالعقول المصرية على احسن طباعة ورق ، مما يشعر ان مركز الثقافة انتقل اليهم تاركا الفقيرة في صورة التابع وليس المتبوع ، كما لو كان السلطان سليم قد طلع من التاريخ عائدا ، ونقل صناع مصر المهرة وعقولها المستنيرة .. »(١١) .

(٤) ينكر الحكيم صراحة ان « العرب امة واحدة » و « ان لها قضية واحدة » ، مدللا على ذلك بخيثيات شكلية ، يقيمها الحكام والانظمة التي لا مصلحة لها في تحقيق الوحدة العربية بل ان مصلحتها واستمرار وجودها مرهون بسيادة التجزئة والفرقة . يرى الحكيم « انه عندما نقول ان العرب امة واحدة لها قضية واحدة . « فهو قول لا اساس له من الواقع ، لان الواقع هو ان لكل دولة عربية قضيتها ومواقفها التي تهمها في المكان الاول . . . فليس بينها اتحاد مشترك في جيش واحد ، واقتصاد واحد ، بل فيها دولة تتمتع بالغنى المفرط ، واخرى تقاسي من الفقر المدقع .. وبعضها ارضه محتلة وتهمه مؤتمرات السلام ، والبعض ارضه حره تهمه مؤتمرات الاوبيك وسعر الدولار »(١٢) ... لذلك فهو يطالب بحياد مصر عن محيطها العربي ، متناسيا معاهداتها واتفاقياتها مع العدو الصهيوني .

المؤيدون

كان الدكتور حسين فوزي الوحيد من بين كتاب مصر ومفكريها ، الذي ايد دعوة الحكيم للحياد بشكل صريح واضح ، معتبرا ان « الحياد هو الحل الوحيد الذي يحرر مصر من مشاكل لا تنتهي »(١٣) . واذا كنا قد لاحظنا ان الحكيم يقصد حياد مصر في الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، وان دعونه جاءت لتنسجم مع سياسة النظام الساداتي بعد اعترافه بالعدو الصهيوني وصلحه معه ، رغم ان الحكيم لم يحدد صراحة هذا

المفهوم الواضح عن كتاباته فان مؤيده حسين فوزي يفصح عن هذا المفهوم بكلمات صريحة واضحة لا تحتمل التفسير ، والتأويل ، فهـو يقول : « ... الصورة الواضحة لنا في مصر ، تشير الى ان النزاع القائم سوف يطول الى ما الله به اعلم . نظرا لما تجري عليه الامور حاليا من دول عربية ترفض مبادرة السلام ، وتشجب مصر شجبا تعدى البذاءة السوقيـة الى التهديد بالقتل ، والشروع في تنفيذه كلما سنحت الفرصة لاغتيـال الابرياء الساعين الى خير الدول العربية جمعاء . حياد مصر الذي لايفرض فرضا ، بل يقضي بتبادل الراي وعرض الفكرة على المجموع العربي كلـه لتناقش وتوزن حسابات المستقبل . ولعل التناول الهادىء الحكيـم ، يصل بنا الى السلام العادل المرموق باتفاق الدول العربية كلهـا ، فتشرق الشمس على الساحة الكريمة ، تبدد شوائب النخاسة والضغينـة ، حينذاك يصبح امر الحياد مفروغا منه ، فيؤجل او يطوى ، اما اذا استمر النزاع الى ما لا نهاية ، سواء جاء من تعنت رئيس حكومة اسرائيل او من الجبهة التي ترفض مبادرة التحرك الى السلام ، وعاد الامر الـى تكديس السلاح ، وحشد الجحافل استعدادا لجولات جديدة ، فلا مناص قطعا من تحقيق حياد مصر باقرب طريق »(١٤) .

ان تأييد حسين فوزي للحياد المزعوم ، يكشف ما لم يقله الحكيم صراحـة :

أ ــ فهو يؤيد الحياد لان الصراع القائم مع العدو الصهيوني سـوف يطول ، نظرا لرفض الاقطار العربية الصلح مع العدو ، لذلك فالفرض عنده حياد بين العرب والعدو في حالة نشوب الحرب . والدليل على ذلك انه يعترف بان هذا الحياد المطلوب ، يصبح مفروغا منه اذا وافق العرب بالاجماع على السلام ، وفي مفهومه انهاء حالة الحرب مع العدو .

ب ــ ثم يعود الى الاصرار على هذا الحياد ، اذا استمرت حالـة الحرب (يسميها النزاع) ، سواء بسبب تعنت حكومة العدو او جبهة العرب الرافضة للسلام ، كما يقول .

لويس عوض واساطيره السياسية

لم يكن النزوع الانعزالي عند لويس عوض اقل منه عند توفيق الحكيم ، وتميز بتوجيه سهامه السامة الى الصميم ، فيشكك في فكرة القومية العربية من اساسها ، على اعتبار انها اسطورة سياسية غير موجودة واقعيا ، وان الدعوة اليها لا تختلف عن الدعوة النازية . وقد بدأ مقالته (الاساطير السياسية)(١٥) . بالتنبيه الى مسألتين :

الاولى : الكف عن استخدام اللغة ستار دخان يخفي وراءه ما نريد التعبير عنه بوضوح وصراحة . لذلك نجده يعبر عن ارائه بفصاحة وعلنية لا مواربة فيها ، ولا دخان يحجبها .

الثانية : الكف عن الاسترسال في العيش في اوهام اساطير سياسية الفتها حياة مصر السياسية ، رغم عدم واقعيتها واهمها اسطورة (القومية العربية) .

في مقالته هذه ، ومقالة اخرى(١٦) ، يركز دعوته الانعزالية على مسألتين خطيرتين ، هما :

(١) التشكيك في فكرة القومية العربية ، فهو يرى ان « اسطورة الاندماجية المتمثلة في دعوة القومية العربية التي تفرض ان شعوب المنطقة او اقوامها من الخليج الى المحيط « امة واحدة » ليس فقط ثقافيا وحضاريا ، ولكن عرقيا وعنصريا كذلك . وهذه الاسطورة ترتكز على خرافة البعث العربي ، واحيانا مجد الامبراطورية العربية ايام الفتوحات العربية العظمى . وهذه الاسطورة ، اسطورة العروبة العرقية خارج الجزيرة العربية ، لا تقل خطرا عن اسطورة الارية العرقية ايام النازي . كما يعقد مقارنة بين الشعوب اللاتينية وشعوب الامة العربية ، معتبرا ان العرب مثل الرومان في الاساس ، نشأ عن كل منهم شعوب مختلفة .

(٢) الدعوة الى العامية في اللغة ، كنتيجة لعدم ايمانه بالقومية العربية الواحدة ، فهو يرى منطقية تطور لهجة كل قطر عربي لتصبح لغة مستقلة ، كما تطورت الفرنسية والانجليزية والاسبانية عن اللغة اللاتينية(١٧) .

في مواجهة الافكار الانعزالية :

تعمدنا التفصيل في آراء الافكار الانعزالية ومواقفها في مصر ، تلك المواقف التي تنطلق من (فرعونية) مصر ، تمهيدا لسلخها عن قوميتها العربية ، كي نوضح خطورة هذه الافكار على حاضر الامة العربية ومستقبلها ، وهي تنطلق من نفس منطلقات الدعوة الانعزالية المعروفة بـ (الفينيقية) في لبنان ، التي يدعو اليها سعيد عقل واخرون ، مطالبين ــ كتطبيق ميداني ــ لها بكتابة اللغة العربية بحروف لاتينية ، على غرار ما فعل كمال اتاتورك بالحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغة التركية وقد اعلن سعيد عقل صراحةعن دعوته ، ونشر ديوانه (يارا) مكتوبا بالحروف اللاتينية ...

ازاء كل ما سبق ، يصبح من الضروري استنفار الادب والادباء والمفكرين القوميين العرب لمواجهة الافكار الانعزالية وبالذات في ميداني الادب والفكر ، ومحاصرتهما قبل شيوعهما في الاوساط العربية ، لان هذه الدعوات تلتقي مع الافكار الاستعمارية القديمة ــ الجديدة الرامية الى تفتيت الامة العربية الى اقطار متنافرة ، من خلال البحث عن المصلحة الشخصية الخاصة لكل قطر ، وتنمية وتطوير الفوارق الجزئية ذات الطابع المحلي ، لتصبح بعد حين طوابع قومية مستقلة ، تجعل المنطقة العربية تشهد العديد من القوميات : المصرية والعراقية والسورية والمغربية والفلسطينية ... الخ وفي دراسة حديثه بعنوان « احتضار الامة العربية » لـ « وليام براون »(١٨) مدير المهمات في الوكالة الامريكية للتنمية في السودان ، ومن مستشاري الحكومة الامريكية ينصح الادارة

الامريكية والسياسة الغربية ، بالكف عن التعامل مع الوطن العربي على انه (امة عربية واحدة) ، لان هذه الفكرة ـ كما يرى ـ قد احتضرت على ارض الواقع ،واذاماتم التعامل مع كل قطر على حده ، مــن خلال مصالحه الخاصة ، فان هذا من شأنه تسهيل نفوذ السياسة الامريكية في المنطقــة .

ان مواجهة الافكار والنزعات الانعزالية ، يتطلب مواجهتها فيميادين عدة ، اهمها :

١ ـ في ميدان السياسة

لاحظنا ان الفكر والاحساس القومي هما السائدان في المنطقة العربية ، لذلك فان الافكار الانعزالية ـ فرعونية ام فينيقية ام آشورية ـ ومعها الدعوات الاقليمية ، لا تبرز ، ولا ينشط اصحابها ومفكروها ، الا في ظل الاوضاع السياسية الرجعية التي لا تقيم وزنا لمصالح الجماهير العربية لذلك فان محاربة الاوضاع السياسية الرجعية في الاقطار العربية هو في الصميم انتحار للافكار الانعزالية ... والدليل على ذلك ان عودة لويس عوض للهجة المصرية العامية ليست جديدة . فقد نظر لها عام ١٩٤٧ في مقدمة ديوانه (بلوتولاند) وطبقها ميدانيا عندما نشر بعد عودته من اوربا قبل ذلك كتابه (مذكرات طالب بعثة) ، وكان مكتوبا باللهجة المصرية العامية . وعندما جاءت ثورة عبدالناصر بآفاقها وتطبيقاتها العربيةالقومية سكت لويس عوض وحسين فوزي واخرون ، لانهم وجدوا المناخ السائد الحاكم لا يسمح بهذه الافكار الانعزالية الهدامة ، بل يضرب على ايدي اصحابها بقسوة لا ترحم . وظل هذا السكوت حتى عام ١٩٧١ ، عنـد ارتداد السادات عن كل اثار المرحلة الناصرية ، فشايعوا الجو السياسي السائد بالهجوم على عبد الناصر ، وبالذات توجهاته العربية القومية . وعندما وقع السادات اتفاقية الصلح والاعتراف بالعدو الصهيوني ، وجدوا ان المناخ السياسي السائد يسمح بدعواتهم الانعزالية ، بليشجعها فكان هذا السفور والعلنية التي عرضنا بعض مظاهرها ... ان هـذا

المثال من مصر العربية ، يكفي تدليلا على ان الافكار الانعزالية مرتبطة بالاوضاع السياسية الرجعية ، وبهذا يصبح محاربة الاوضاع السياسية الرجعية في الوطن العربي مقتل للافكار الانعزالية .

٢ ــ في ميدان اللغــة :

دللت كافة بحوث القومية العربية على ان اللغة العربية التي يكتب ويتكلم بها الوطن العربي منذ ما يزيد على الف عام ، هي من اهم مقومات القومية العربية . يقول ساطع الحصري : « .. كل من ينتسب الى البلاد العربية ، ويتكلم اللغة العربية ، هو عربي مهما كان اسم الدولة التي يحمل جنسيتها بصورة رسمية ، ومهما كانت الديانة التي يدين بها ، والمذهب الذي ينتمي اليه ، ومهما كان اصله ونسبه وتاريخ حياة اسرته ... فهو عربي ، والعروبة ليست خاصة بابناء الجزيرة العربية ، ولا مختصة بالمسلمين وحدهم بل انها تشمل كل من ينتسب الى البلاد العربية ، ويتكلم باللغة العربية ، سواء كان مصريا او كويتيا ، او مراكشيا ، وسواء كان مسلما او مسيحيا ، وسواء كان سنيا او جعفريا (شيعيا) او درزيا ، وسواء كان كاثوليكيا او ارثوذكسيا او بروتستنتيا ، فهو من ابناء العروبة مادام ينتسب الى البلاد العربيةويتكلم العربية »(١٩) . من هنا ، تصبح المحافظة على سلامة اللغة العربية . والكتابة والتحدث بها مسالة مهمة وضرورية للحفاظ على الاداة اللغوية التي تربط عموم الوطن العربي ، لان تراجعها في قطر يعني تراجعه عن العديد من المسائل القومية العربية .

وهنا تنمو الافكار الانعزالية في ذلك القطر ، فتسلخه بعد زمن عن الوطن العربي لتصبح له خصائص وفوارق ذاتية .

وللوقوف عند خطورة الامر نسأل :

ما هو مصير لبنان الان لو نجحت دعوة سعيد عقل لكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ؟ . هل كان بالامكان اليوم ان نعتبر لبنان عربيا ، اذا

مضى عليه ثلاثون عاما وهو يكتب بحروف لاتينية ، وبالتالي لا يفهم احدا من العرب ، ولا يفهمه احد من العرب ؟ . وايضا ما هو مصير مصر لو نجحت دعوة لويس عوض وغيره للكتابة باللهجة العامية المصرية ؟ ومن ثم يكتب كل قطر بلهجته العامية ، فاذا نحن فعلا بعد خمسين عاما على الاكثر امام ما لا يقل عن عشرين لغة ، تنمو مع الزمن بمفرداتها ونحوها وصرفها ، فتتقطع وسائل التفاهم بين اقطار الوطن العربي ...

ولاهمية عامل اللغة العربية في توحيد الامة العربية ، وعامل اللهجات العامية في تفريقها ، وجدنا المستشرقين الاستعماريين يعملون كل ما في وسعهم لدراسة اللهجات العامية في الاقطار العربية والدعوة للكتابة والتحدث بها . وهي جهود ودعوات قديمة شجعها ومولها الاستعماران الانجليزي والفرنسي ، وجند لها مستشرقين ومفكرين عملوا في خدمة السياسة الاستعمارية في مجال اللغة . يذكر زكي الارسوزي(٢٠) ان مستشرقا فرنسيا القى محاضرة بدمشق عام ١٩٢٥ ، ادلى في نهايتها بالنصيحة التالية : « اذا كنتم انتم السوريين ترغبون في تحسين احوالكم ونيل الاستقلال فعليكم ان تبرهنوا لفرنسا بانكم لستم عربا . وانتم تبرهنون لها عن ذلك اذا حولتم لهجتكم العامية الى لغة الادب والكتابة بدلا من الفصحى ودونتموها بالاحرف اللاتينية . وعلى قدر تقدمكم في هذا المضمار تنالون من الاستقلال » .

وفي هذا المجال ، من المهم والمفيد والضروري الاطلاع بعمق على كتاب « الدعوة الى العامية وآثارها في مصر » ، للدكتورة نفوسة زكريا ، فهو كتاب يرصد كافة محاولات الاستعمار ومستشرقيه ، لبعث اللهجة العامية المصرية ، ولما كان مجالنا في هذه الدراسة مواجهة الافكار الانعزالية ، نكتفي بالتأكيد على ان محاربة الكتابة باللهجات العامية ، وتشجيع اللغة الفصحى والعمل على انتشارها ، من العوامل الهمة في ميدان مواجهة الادب والفكر الانعزالي .

وهذا الامر ــ في رأيي ــ يرتبط كذلك بمسألة الامية في الوطن العربي، لان الانسان الامي لا يمكنه القراءة والتحدث باللغة العربيـة الفصحى ، وهذا مناخ خصب لرواج الدعوة للهجات العامية ، وخطورته تكمن في ان نسبة الامية في الوطن العربي تزيد على ٧٥ ٪ .

لذلك فان المواجهة في ميدان اللغة ، كما ارى ، تحتاج الى :

١ ــ تخطيط واسع وشامل لمواجهة الامية المتزايدة في الوطن العربي، والخطير في الامر انه رغم الجهود المبذولة في اغلب الاقطار العربية لمحاربة الامية ، فان نسبة الامية تتزايد عاما وراء عام ، نتيجة التسرب الحادث في المدارس العربية .

٢ ــ مناشدة المؤلفين العرب ، ودور النشر العربية ، بالكف عن الكتابة باللهجات العامية ، والنشر بها . والغريب في الامر ، اننا ونحن في عام ١٩٨٥ ، مازلنا نجد العديد من الشعراء العرب يكتبون اشعارا بالعامية التي لا يفهمها الا ابناء قطرهم ، وهذه الظاهرة بالذات في مصر ولبنان والعراق . وتطويرا لهذه العامية ، اقامت بعض الاقطار العربية في السنوات الاخيرة ، مهرجانات شعرية رسمية للشعر العامي .

٣ ــ في ميدان التربية :

هذا الميدان مهم ومؤثر ، لانه في جو مناهجه وبرامجه تتحدد السبل للاطروحات القومية او الاقليمية الانعزالية . والملاحظ عند دراسة المناهج التربوية السائدة والمطبقة في الوطن العربي ، والتي يتربى في جوهـا ويتعلم ملايين الطلاب في مراحل الدراسة المختلفة ، انها مناهج اقليمية تركز على خصائص كل قطر ، مهملة الحديث عن بقية الاقطار . واذا تحدثت عن بقية الاقطار ، فبدون ربطها كجزء ضمن سياق عام يمثلها وهو (الوطن العربي) ، ان تركيز كل منهج على جغرافية وتاريخ وزعماء وشخصيات

قطره ، ادى الى ترسيخ الاحساس بالانا وتضخمه ، مقابل ضمور الاحساس ب « القومي العربي » .

لقد ادى تضخيم الاقليمية في المناهج التربوية المدرسية والجامعية العربية الى نسيان هذه المناهج ـ في غالبيتها ـ الاجزاء التي اقتطعت مغذ سنوات من الوطن العربي كالاسكندرون وعربستان وسبته ومليله . حتى فلسطين التي احتلت بالكامل ، تتعامل معها هذه المناهج المدرسية والجامعية ، بسطحية وهامشية ، تماما كما تتعامل مع المكسيك او فرنسا . ولقد ادى ذلك الى ان الكثيرين من طلاب المدارس الابتدائية العربية ، اذا سئلوا عن دول المنطقة ، يعددون (اسرائيل) واحدة منها ... من هنا تصبح مسؤولية التخطيط لبرامج تربوية عربية قومية ، تطبق وتمارس في المدارس والجامعات العربية ، من اهم الامور لمواجهة الافكار الانعزالية والاقليمية .

٤ ـ في ميدان الفكر :

ينبغي علينا ونحن بصدد مواجهة النزعات الاقليمية والانعزالية ، ان نحدد (فكريا) استراتيجيا ، يتبناه المفكرون العرب ، ويدافعون عنه في المجالات كافة . وهنا لا أقصد الفكر بمعناه الشمولي ، اذ ليس من المفيد هنا الدخول في الجدل الواسع ، والصراع الدائر بين الفكر القومي والماركسي والاسلامي . ولكنني احصر المسألة في موضوعية (الكيان الصهيوني العدو) ، لان وجوده الاستيطاني الغريب في المنطقة العربية ، من اهم العوامل واخطرها في تنمية الافكار الانعزالية وتغذيتها . لذلك فانه في ميدان الفكر والاستراتيجيا ، ارى ضرورة تجذير مسألة « الوجود الاستيطاني » لهذا الكيان العدو . ان الاستعمال اليومي المتكرر المضاد لكلمة (اسرائيل) من اغلب الكتاب العرب ، جعلها وكأنها حقيقة واقعية ، في حين ان العدو في كافة ادبياته يصر عن نفي وجود الشعب الفلسطيني ، ويطلق عليه اسم (عرب اسرائيل) ، ويصر على تسمية فدائييه

بالمخربين ... ان هذا ليس سطحية من (العدو) ولكنه ايمان بضرورة استمرار تغذية العداء الصهيوني للعرب عامة والفلسطينيين خاصة ...

لذلك فان اتفاق الفكر العربي ، وبالتالي تطبيقات المفكرين العرب في كتاباتهم ودراساتهم ، على معاداة هذا الكيان العدو الدخيل ، مسالة ذات علاقة مركزية بمحاربة الدعوات الانعزالية ، وقد شاهدنا ان هذه الدعوات لم تحيا في مصر ، او تعود للحياة ، الا في زمن الصلح مع العدو والاعتراف بـه .

ان الاوضاع الاقليمية الحاكمة والسائدة في الوطن العربي حاليا ، صالحة تماما لبروز النزعات الانعزالية ، وما غرسه الاستعمار في كافة البلدان العربية وما يزال موجودا ، يجعل كل قطر عربي مهيئا داخليا للتشتيت والتشرذم ، اما دينيا او عرقيا ، والدليل على ذلك الدعوات العلنية لتقسيم لبنان ، وانفصال جنوب السودان ، واستقلال صعيد مصر .. وذلك يجعل من مواجهة الافكار الانعزالية والتوجهات الاقليمية مسألة تهم حاضر الامة العربية ومستقبلها . ويستدعي هذا مواجهتها في الميادين التي ذكرتها ، وميادين اخرى ، محافظة على وحدة هذا الوطن العربي وقوميته

←

هوامش :

(١) لمزيد ن التفاصيل حول موقف لطفي السيد هذا ، يراجع كتاب مذكراتي في السياسة المصرية للدكتور حمد حسنين هيكل ، الجزء الاول ــ مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٥٢ .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول موقف لطفي السيد هذا ، يراجع كتاب :
الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر للدكتور محمد حسنين ، الجزء الثاني ، مكتبة الاداب ، القاهرة ١٩٥٦ .

(٣) د. أحمد فؤاد ــ قمم ادبية ، عالم الكتب ــ القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٧ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨ .

(٥) و (٦) النصوص من بحث للدكتور محمود زايد بعنوان « الفرعونية : اصولها ومحتوياتها » . مجلة قضايا عربية ، العدد الثالث من السنة الثالثة ، تموز ــ يوليو ١٩٧٩ .

(٧) رجاء النقاش ــ عباس محمود العقاد بين اليمين واليسار ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ١٩٧٤ ص ٢١٩ .

(٨) جريدة الاهرام ــ ٣ مارس ١٩٧٨ .

(٩) جريدة الاهرام ــ ١٨ مارس ١٩٧٨ .

(١٠) جريدة الاخبارة ــ ١٨ مارس ١٩٧٨ .

(١١) جريدة الاخبار ــ ١٨ مارس ١٩٧٨ .

(١٢) جريدة الاهرام ــ ١٨ مارس ١٩٧٨ .

(١٣) جريدة الاخبار ــ ٢٢ مارس ١٩٧٨ .

(١٤) جريدة الاخبار ــ ٢٢ مارس ١٩٧٨ .

(١٥) جريدة الاهرام ــ ٧ ابريل ١٩٧٨ .

(١٦) جريدة الاهرام ــ ١١ مايو ١٩٧٨ .

(١٧) للاطلاع على مزيد من تفاصيل آراء لويس عوض والرد عليها يراجع كتاب « الانعزاليون في مصر » لرجاء النقاش ، المؤسسة العربية ، بيروت ١٩٨١ .

(١٨) مجلة Forengn polncy العدد (٥٤) ــ ربيع ١٩٨٤ .

(١٩) ساطع الحصري ــ العروبة اولا ص ١٢ .

(٢٠) زكي الارسوزي ــ المؤلفات الكاملة ، المجلد الثالث ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٤١ . ومن المفيد الاطلاع على مزيد من تفاصيل محاولات الفرنسيين لنشر اللهجة العامية ، وتشجيع تدريس اللغة الكردية ، وبعث الاحساس بالشعور الشركسي . وغير ذلك من المحاولات في المجلد نفسه .

التربية المنهجية في المستقبل:

دراسة اسقاطية لخصائصها ومكوناتها المحتملة

د. محمد زياد حمدان

١ ـ المقدمة :

ان المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تسود حياتنا اليومية ، وان الحروب واساليب الغزو الحديثة والتسلط على مقدرات الافراد والشعوب وممارسات القهر لاراداتهم وحرياتهم وحقوقهم الاساسية التي ينغص بها عالمنا الارضي ، وان ما نخبره في الحياة الاجتماعية والتروبوية من تواكل وتناقض وتلون ومصلحية ، ومسخ فاضح للقيم العامة السوية ....تشير كلها وغيرها الكثير الذي نلاحظه في حياتنا بوجه عام للفشل الواضح الذي تعاني منه التربية المنهجية في اداء رسالتها الانسانية المرسومة .

وترجع احدى الاسباب في راينا لهذا القصور الى بعد التربية المنهجية عموما عن الواقع ، وعجزها في نفس الوقت عن تنبؤ ما سيطرا عليه في المستقبل من تغيرات واضافات ، وما سيتصف به من خصائص وعوامل، ومن ثم تخطيط استراتيجيات تربوية للتفاعل معه والاستجابة له .

ان الاساليب الشخصية وغير العلمية التي تبنى بواسطتها المناهج الدراسية ، والتي تقترح بها بعدئذ للاستعمال ، يجعلها في الغالب غير مؤهلة لاداء رسالتها المنشودة ، وعرضة لمواجهة عوامل بيئية لم تكن في الحسبان ، وتلاميذ يختلفون بخصائصهم وحاجاتهم عن اولئك الذين طورت على اساسهم هذه المناهج . ومن هنا تحدث الهوة غير المرجوة بين التربية المنهجية والواقع ، فنسمع المتعلمين احيانا يقولون : « هناك اشياء كثيرة موجودة في الحياة لم نتعلمها في الكتب » ، « ان ما نتعلمه من الكتب هو علم ميت لا يسمن ولا يغني من جوع » ، « لماذا انفق حياتي في تعلم اشياء لا تنفعني في المستقبل ؟ » . . .

والمستقبل هو تلك المرحلة من حياة الفرد التي لم يخبرها بعد ، ويعتريه عادة فضول عارم لكشف غوامضها وتنبؤ مجرياتها . مع شعوره ببعض الخوف من المجهول الذي قد يحدث خلالها . وهو ايضا احدى الدورات الزمنية الثلاث (الماضي والحاضر والمستقبل) التي نعيشها في حياتنا الدنيوية ، كما انه الدورة الزمنية الوحيدة التي لا زلنا نجهل تماما معالمها لارتباطها المباشر بالحياة الآخرة .

والنظرة للمستقبل المحسوس (الدنيوي) وغير المحسوس (الاخروي) توجه في الواقع اهدافنا وسلوكنا الشخصية الحياتية . فالطفل منذ سنينه الاولى يبدأ بتشريع مستقبله عن طريق اقتراح تصورات مقبلة لما سيكون عليه من منزلة ، أو ما سيتخذه من مهنة او سيمتلكه من اشياء وصفات .

وبالرغم من أن هذه التصورات تتعرض لكثير من التقلبات والتغيرات خلال المراحل الاولى من حياة الناشيء ، الا أنها تشكل أثناء طفولتـه المتوسطة وحياته اليافعة اساسـا موجها لسلوكه العـام لتحصيـل مـا يتمناه في نفسه مستقبلا .

ويبدأ الناشيء عادة بالكفاح لتحقيق ذاتـه المقبلة ،آملا عن طريق الربية المنهجية الوصول لما يتمناه ، ولكن الذي يحدث في كثير من الاحيان معايشته لعجز هذه التربية عن الاستجابة لكل أو بعض ما يحتاج ، فتعتريه خيبة الامل ويتسرب منها متخليا عن بعض آماله ، ومتبنيا بدائل تربوية مباشرة أو غير مباشرة / خفية ، بعضها صالح مفيد والاخر سلبي مدمر ، مؤديا به كل هذا لشخصية غير متكاملة ، عرضة للخطـأ وللتسامح في ارتكابه بوجـه عام .

ونحن بهذا لا نحمل التربية المنهجية مسؤولية كل هذه السلبيات التي تعم حياتنا العامة والخاصة بحد سواء ، بل ندرك بأن هنـاك العديد من العوامل المحلية والعالمية التي تضافرت معا بقصد او بدونه ، لتنتـج ما نحن عليه من فوضى وما نعانيه من تأخر . ومع هـذا كله ، نأخـذ على التربية المنهجية عجزها عن مواجهة الواقع وعدم فعاليتها كعامـل رسمي منظم ، مضاد في اضعاف هذه التحديات وابطال مفعولها وتصحيح نتائجها السلبية ، ليس فقط عن طريق دراسة الواقع الذي نعيشـه آنيا ، بل بالتأمـل الجاد في معطيات وعوامل المستقبل المحتملة والاستجابة المستمرة البناءة لمتطلباتها .

وفي الفقرات التالية من هذه الدراسة ، سنتناول موضوع التربيـة المنهجية في المستقبل ، وما يجب ان تتصف به من خصائص ومكونات لتكون قادرة على تحمل مسؤولياتها الحاضرة والمقبلة معا ، وعلى النجاح الفعـال في ادائهـا .

ب — اسباب تدعو لتغيير نمط التربية المنهجية الحالية :

تقوم التربية المنهجية الحالية على استعمال جداول يومية وشهرية ثابتة في شكلها ومحتواها ، تدوم في معظمها لتسعة أشهر فيما يعرف بالسنة الاكاديمية او الدراسية . وتستخدم كذلك مناهج جامدة احيانا ، بعيدة عن رغبات وحاجات التلاميذ الواقعية المباشرة ، او عما يجري في الحياة العامة من حوادث وتحولات متنوعة متواصلة ، ايجابية او سلبية بحد ســواء .

اما اجرائيا اداريا ، فيتم تنفيذ التربية المنهجية بسلسلة رتيبة مــن الاجراءات والاساليب المباشرة في لفتها ، والاملائية في انجازها كالاجراس وطابور الصباح والفترات اليومية والقيام والجلوس للتلاميذ ، والمعلمين ، عند سؤالهم او مخاطبتهم من احد ، والافادات (التقارير) الرســمية والمكتوبة عند الدخول والخروج والاستئذان لقضاء حاجة ملحة خارج المدرسة او داخليا ... الى غير ذلك من اساليب قد لا تتلاءم مع مجريات وطبيعة العصر ، وقد لا تتوافق مع ما يتصف به التلاميذ في ايامنا الحاضرة من خصائص نفسية ، وما يعتادون عليه من اساليب تنشئة ومعاملــة اسرية ، وما يشوب حياتهم خارج المدرسة من مشاكل وملهيات شخصية ومادية واجتماعية وسياسية وقومية وعلمية ، او يشغلها من تطورات مفاجئة في هــذه المجالات .

ومهما يكن ، فاننا نستطيع تلخيص الاسباب الداعيــة لتغيير نمط التربية المنهجية الجارية في القائمة التالية :

١ — ان كل متعلم انسان فذ في خصائصه وحاجاته وآماله ، وعليه يجب ان تتحول التربية المنهجية الحالية من صيغها الجماعية الى الفرديــة الشخصيــة .

٢ — ان الظروف العامة المتنوعة التي يعيشها المتعلمون واسرهم وما تجلبه لهم من مشاغل وملهيات وما تستهلكه منهم من جهد ووقت ، يحتم

كل هذا على التربية المنهجية ان تعدل من محتواها التربوي ومن خططها وأساليبها الادارية اليومية ، لتتفق مع ظروف المتعلمين وأسرهم وامكانياتهم الزمنية العامة .

٣ ـ ان ازدياد عدد المتعلمين يوما بعد يوم ، وتقلص الامكانيات المادية القومية وعدم قدرتها احيانا على توفير المواد والاجهزة والتسهيلات والخدمات المساعدة المطلوبة لهذه الاعداد الاضافية ، يحتم على التربية تعديل فترات وكيفيات استخدامها لهذه العوامل التربوية المادية لتوفير مزيد من النفقات التي يمكن استغلالها في سد احتياجات اجتماعية وقومية اخرى ملحة (١) .

٤ ـ ان الانفتاح العالمي في الاتصالات بين المجتمعات الارضية وافرادها ، وما ينتج عن هذا من نقل للعلوم والثقافات والافكار ، يحتم على التربية المنهجية تغيير محتواها وأساليبها لتعمل على تخفيف حدة نتائج هذا النقل ، وتهيئة الناشئة نفسيا وادراكيا لفهم مادته واستخدام الصالح منها دائما .

٥ ـ ان شمول وتنوع الاضطرابات واعمال العنف والغزو والصراعات الايديولوجية العالمية في بقاع المعمورة ، يحتم على التربية المنهجية تغيير ما هي عليه من مفاهيم وممارسات لتكون عاملا مساعدا على حفظ التوازن الدولي وتنمية التفاهم بين الشعوب وتقوية قيم المحبة والسلام بين أعضائها .

٦ ـ ان التغيرات المفاجئة المتنوعة التي تعتري حياتنا العامة والخاصة كل يوم ، تدعو التربية المنهجية لتعديل اهدافها والتحول من حشو عقول التلاميذ بالمعارف والمعلومات ، الى تطوير أساليب تعلم فردية يستطيعون بها حل مشكلاتهم وفهم الاشياء حولهم واستخدامها الذكي لصالحهم طيلة سنين حياتهم ـ تطوير الانسان المتعلم طيلة الحياة .

٧ ــ ان تعدد الحوادث الجارية وتنوعها وانعكاس آثارها البالغـة النفسية والشخصية والادراكية على الناشئة ، يدعو التربية المنهجية لان تفتح حدودها ، وأن تخرج من عزلتها التقليديـة بين جدران المدرسة وضمن فصولها ، للحياة الاجتماعية المحلية وللاستقصاء والبحث فيها والاستفادة البناءة من الخبرات الميدانية الواقعية لها .

٨ ــ ان تنوع أمم الارض وافرادها وما ينتج عن هذا من اختلاف في قيمهم واساليب تعاملهم ولغاتهم ، يدعو التربيـة المنهجية لتعديـل أهدافها ومحتواها من حفظ المعلومات والمعارف ، الى استخدامهـا في مناسبات وبكيفيات متعددة ، مع التركيز على مهارات الاتصال اللغويـة والتعبيرية الجسمية بمختلف اشكالها واساليبها .

٩ ــ ان التحول السـريع والمستمر لمظاهـر الحيـاة الانسـانية ومتطلباتها ، يدعو التربية المنهجية التركيز على المفاهيم والمبادىء العامـة للمعارف والمعلومات دون حشوها وتفاصيلها ، وعلى المهارات والجوانـب العلمية التطبيقية دون النظري المجرد منها .

١٠ ــ ان التقلب القيمي والتناقض السلوكي وحب الذات عن كلٍّ ما سواها ، التي تـسود جميعا الحياة الانسانية غير الواعية هذه الايام ، يحتم على التربية المنهجية ان تتعدى في تركيزها على المهارات العقلية ، الى تنمية ورعاية الجوانب الروحية والعاطفية والانسانية والاجتماعيـة لشخصيات التلاميذ .

١١ ــ ان تعدد الحوادث والمشاكل اليومية وتنوعها وغموض مسبباتها الحقيقية غالبا ، يدعو التربية المنهجية لتنمية قدرات التلاميذ على اقتراح الحلول والبدائل المتعددة لمعالجـة ما يواجههم مـن صعوبات وتحديات والتغلب البناء عليها (٣) .

١٢ ــ ان التلاعب الدولي بمصائر المجتمعات المحلية ومحاولة القوى العالمية المسيطرة على مقدرات هذه المجتمعات باية وسيلة ، يحتم على

التربية المنهجية بأن تخرج عن نطاق المعارف الادراكية وأساليب التسميع والاستظهار لها الى تنمية وتعليم التفكير ، والقدرة على الربط والوعي المنطقي لمجريات الاحداث وانتاج الحلول والاستراتيجيات الذكية المضادة، القادرة على صيانة حقوق الامة والحفاظ على مقدراتها .

ان ما تتناقله اجهزة الاعلام العالمية هذه الايام من ابتكار بدائل جديدة ورخيصة للطاقة ، كقصة اختراع عالم بريطاني لطريقة يستطاع بها تحويل النفايات الى زيت نقي للوقود(٢) ، وان هناك فائضا كبيرا في زيت الوقود، وانه يجري تطوير طرق لاستغلال الطاقة الشمسية ... الذرية ، هي جميعا امثلة للتلاعب الدولي التي يمكن تصنيفها معا « بلعبة النفط النفسية » . ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، بل يتردد على السمع بين الحين والاخر بأنه سيتم الاستيلاء على مصادر النفط عسكريا اذا الحت الحاجة لذلك ، حيث يدخل مثل هذا ضمن لعبة من نوع آخر يمكن تسميتها هذه المرة « بلعبة النفط العسكرية » .

١٣ ــ ان الاعداد الكبيرة من الشباب العاطل عن العمل والمتسكع في شوارع المدن كل مساء ، ستجد نفسها يوما ــ تحت وطأة متطلبات الحياة اليومية ونفقاتها المتزايدة الاسرية الشخصية بحاجة للعمل والانتاج ، مما يدعو التربية المنهجية البدء على الفور بتطوير كفايات منتجة لملء الفراغ ــ تطوير الهوايات الفردية لدى التلاميذ ، وتحولها كذلك من التعلم النظري لآخر تطبيقي يتم ميدانيا في المؤسسات المحلية الاجتماعية والاقتصادية والادارية والتربوية ...

١٤ ــ ان التحول النسبي في الادوار التقليدية لافراد الاسرة من سلطة منفردة للاب في صناعة قرارات ومسير اسرته وتوجيه حياة اعضائها الى مشاركة فعالة (وقوية احيانا) من الام والابناء في ذلك ، يدعو التربية المنهجية لتعديل اهدافها ومحتواها لتصبح قادرة على تأهيل الناشئة لاستيعاب هذا التحول الاجتماعي وتوجيهه لصالح الاسرة واستقرارها والتفاهم المثمر بين افرادها .

١٥ ـ ان التغلب التدريجي على مشكلة الامية وتحول اعداد كبيرة من المجتمع كل يوم الى متعلمين، وما ينتج عن هذا كله من ازدياد في وعي الفرد لحقوقه وواجباته العامة، وامكانية ادراكه الواقعي لما يجري في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمجتمعه (مع عدم محاولات القيادات او الجهات المحلية غالبا تفسيره او تبريره للعامة) ، يدعو التربية المنهجية لتعديل اهدافها ومحتواها لغرض تطوير القدرة على التحليل العلمي والموضوعي للمواقف الحياتية واصدار الاحكام والاراء الناقدة البناءة ، وتنمية قيم اجتماعية هامة كالتسامح وتفهم حقوق الاخرين ومسؤولياتهم واحتياجاتهم الفردية الخاصة .

١٦ ـ ان الابتكارات العلمية المتواصلة والاكتشافات المفاجئة في مجالات الطب والعلوم والتربية والتكنولوجيا والحياة بوجه عام ، تدعو التربية المنهجية لان تنظر للمستقبل وتحاول تصور ما سيسوده من ممارسات وقيم وعوامل وحوادث باختلاف انواعها ، ثم تجسيدها لذلك ما امكن مع التأكيد على اعداد الناشئة نفسيا وادراكيا لمواجهتها واستيعابها بقليل من التعارض أو التناقض . من أمثلة هذه الابتكارات والاكتشافات العلمية التي تمت حتى الان ، والاخرى التي يجري تنبؤها في المستقبل مايلي(٤) .

☐ امثلة لابتكارات علمية تم تنبؤها وتحقيقها :

←

الرقم	مادة الابتكار	تاريخ التنبؤ	تاريخ التحقيق
١	التصوير	١٧٨٢	١٨٣٨
٢	سحاب الملابس	١٨٨٣	١٩١٣
٣	ورق السيلوفين (ورق بلاستيكي)	١٩٠٠	١٩١٢
٤	الـرادار	١٩٠٤	١٩٣٩
٥	المضادات الحيوية	١٩١٠	١٩٤٠
٦	الطاقـة الذريـة	١٩١٩	١٩٦٥
٧	ساعة اليد الاوتوماتيكية	١٩٢٣	١٩٣٩
٨	النايلـون	١٩٢٧	١٩٣٩
٩	آلة لتنظيم دقات القلب	١٩٢٨	١٩٦٠
١٠	ناقل السرعة الاوتوماتيكي للسيارة	١٩٣٠	١٩٤٦
١١	القهوة الفورية (مثل ماكسويل ونسكافية)	١٩٣٤	١٩٥٦
١٢	آلة النسخ الآلي (زيروكس)	١٩٣٥	١٩٥٠
١٣	قلم الحد الكروي (الاقلام الجافة عموما)	١٩٣٨	١٩٤٥
١٤	الشوربة المجففة المحفوظة (مثل ماجي وغيرها)	١٩٤٣	١٩٦٢
١٥	آلة التصوير الفوري (مثل بولاروید)	١٩٤٥	١٩٤٧
١٦	الاسطوانات السمعية طويلة المدة	١٩٤٥	١٩٤٨
١٧	المستحضرات المضادة للتعرق الجسمي	١٩٤٨	١٩٥٥
١٨	صابون الرأس السائل (الشامبو السائل)	١٩٥٠	١٩٥٨
١٩	مسجـل الفيديـو	١٩٥٠	١٩٥٦
٢٠	سجاير المصفاة (الفلتر)	١٩٥٣	١٩٥٥

□ امثلة لابتكارات عملية تم تنبؤها في مجال الصحة وتجري دراسات اختبارية عليها :

ـ مادة تساعد على تطويل مرحلة الشباب .

ـ دم صناعي يمكن ان يخدم كبديل للدم الطبيعي للانسان .

ـ قلب صناعي يسير بالقوة الذرية .

ـ بنكرياس صناعي لمرضى السكر .

ـ سرير للمصابين بالحروق يقوم على استخدام الهواء المضغوط ويسمح لجسم المصاب بالعوم فوقه دون ملامسته .

ـ علاج كهربائي للالم .

ـ اسبرين كهربائي لاوجاع الراس .

ـ دواء عادي في متناول عامة الناس لعلاج السرطان .

□ امثلة لابتكارات علمية تم تنبؤها في مجال الطاقة وتجري دراسات اختبارية عليها :

ـ استغلال الطاقة الشمسية في المجالات الحياتية (تم تحقيقها وبجري تعميمها بشكل واسع الان) .

ـ الهيدروجين السائل كمادة وقود رئيسية في المستقبل .

ـ ثلاجة تشتغل بالطاقة الذرية .

ـ استغلال النفايات لانتاج الطاقة .

ـ استغلال طواحين الهواء لانتاج الطاقة والاكسجين واستخراج المياه الجوفيـة .

ـ استغلال الحرارة الباطنية للارض في التدفئة والتسخين ...

□ امثلة لابتكارات علمية تم تنبؤها في مجال الاطعمة والزراعة وتجري دراسات اختبارية عليها :

ـ استخدام الاشعاع او الطاقة المشعة لحفظ وتعقيم الاطعمة .

ـ استخراج المواد الغذائية من النفط .

ــ تحويل الصحارى الى مناطق زراعية خصبة (منتجة) باستخدام نبتة اليوهوبا .

ــ زرع البويضات المخصبة في الحيوانات المفيدة كالابقار ــ لمزيد من الانتـاج .

ــ استخدام الامواج العاليـة المستخرجة مـن الحقول المغناطيسية الارضية للقضاء على الاعشاب والنباتات الضارة .

ــ استنبات الاشجار العملاقة في فترات قصيرة بالمقارنة بمثيلاتها في النمو الطبيعي .

ــ استخراج البروتين من الفضلات الانسانية .

ــ زراعة الاشجار من الجو بواسطة الطائرات (يجري تطبيقها الان).

□ امثلة لابتكارات علمية، تم تنبؤها في مجال المواصلات وتجـري دراسات اختبارية عليها :

ــ عربات تسير بدون سائق مدفوعة بالطاقة الكهربائية ومسيرة بواسطة اجهزة آلية كالكمبيوتر (يجري تطبيقها في بعض انحاء الولايات المتحـدة كولايتي منيسـوتا وفرجينيا الغربية) .

ــ القطارات الطائرة التي تسير بسرعة ٣٠٠ ميل في الساعة (تجري اختبارات عليها الان في الولايات المتحدة واليابان) .

ــ استخدام الاقمار الصناعية الفضائية لتوجيـه حركـة الطـيران الجـوي .

ــ طائرات حربية غير مرئية .

ــ عربات تسير بالهيدروجين .

ــ عربات مزودة بالرادار قادرة علـى تجنب الاصطدام بالسيارات والاجسام الاخرى .

ــ استخدام الكمبيوتر في توجيه حركة الطيران الجوي .

ــ طائرات تسير بالقوة المحركة للانسان .

ـ عربات تسير بعجلات مثلثة .

ـ طائرات شحن عملاقة اكثر طولا وعرضا من ملاعب كرة القدم التي نعهدها ، تزن ٥ر٣ مليون باوند وتحمل ٣ر٢ مليون باوند .

□ امثلة لابتكارات عملية تم تنبؤها في مجال الحياة العامة وتجري دراسات اختبارية عليها :

ـ استغلال الكمبيوتر في التذكر الانساني ـ اعمال الذاكرة الانسانية.

ـ استغلال الادوية في التذكر الانساني وتقوية الذاكرة .

ـ استغلال العين في التعرف على الاسرار الانسانية كالجريمة وغيرها.

ـ استغلال العين في التعرف على هوية الفرد وانطباعاته العامة .

ـ ادوية منع الاخصاب للرجال .

ـ آلة خاصة لاكتشاف متفجرات التخريب .

ـ انة اتصال او اكثر بين الانسان والحيوان كالشمبانزي وغيره .

ـ خط هاتفي يستطيع حمل ربع مليون محادثة في آن واحد .

ـ التليفون الرائي (يجري استخدامه وتصميمه الان) .

ـ آلات كاتبة اوتوماتيكية (يجري استخدامها وتصميمها الان) .

ـ الكمبيوتر الناطق .

ـ تليفزيون يعرض صورة بثلاثة ابعاد .

ـ الثوم كدواء للقضاء على البعوض (يجري تصميمه واستغلاله الان).

ـ استخدام الحيوانات كوسائل تحذير للتلوث الجوي .

ـ ادوية منع الاخصاب للحيوانات الاليفة وغير الاليفة .

ـ استخدام الفضلات الانسانية والحيوانية في صناعة القرميد والآجر الارضي (البلاط) .

ـ استخدام الزجاج المسحوق كبديل لرمل الشواطىء .

ـ اختفاء المصنوعات البلاستيكية الحالية واستبدالها بأخرى قابلة للانحلال والتعفن .

ـ استغلال الكتل الجليدية العائمة في استخراج مياه الشرب وفي اعمال الري .

ج ـ مبادىء عامة ستتصف بها التربية المنهجية في المستقبل :

يتوقع من التربية المنهجية في المستقبل أن تتصف بالمبادىء التالية(٦):

١ ـ ستكون معارفها الاكاديمية متمثلة بدرجة رئيسية بالمبادىء والمفاهيم والعموميات الخاصة بالحقل الذي يعالجه المنهج .

٢ ـ ستعتمد طرق تعليمها على الخبرات الواقعية والمحاكية (شبه الواقعية) والبحث وحل المشكلات دون الطرق النظرية المجردة كالمحاضرة والالقاء والحوار . . .

ـ ٣ ـ ستكون مصادرها متنوعة متعددة لا تنحصر فقط بالكتب المقررة بل ستمتد لتشمل المواد والوسائل التعليمية بمختلف انواعها ومصادرها .

٤ ـ ستستخدم بدرجة مكثفة البيئة المحلية الثقافية بمختلف أوجهها وأنشطتها وعناصرها .

٥ ـ سوف لا ينحصر تعلمها على التذكر السريع للحقائق الاولية للمعرفة بل ستمتد لاستنتاج ماهو مؤثر من الافكار والاحكام الكلية والعناصر والعلاقات العامة السائدة فيما يتعلمونه والقابلة للتطبيق والاستعمال في الحياة الواقعية بعدئذ .

٦ ـ سيساعد تعلمها التلاميذ على الاندماج في مجتمعهم والقيام الفعال الناجح للمسؤوليات المتوقعة منهم .

٧ ـ سيساعد تعلمها التلاميذ على فهم انفسهم وما يتصفون به من قدرات ومواطن ضعف .

٨ ـ سينمي تعلمها في التلاميذ الثقة بالنفس والمثابرة ومقاومة الشعور بالعجز أو عدم القدرة على تحقيق مايريدون .

٩ ـ سينمي تعلمها في التلاميذ الانتماء الفطري لامتهم ووطنهم دون الوهن أو التراجع ابدا في ذلك .

١٠ ـ سيساعد تعلمها التلاميذ على فهم طبيعة التغيير الذي يخبرونه وعوامله واتجاهاته ونتائجه القريبة والبعيدة المحتملة ، ثم تبني دوره ايجابي فعال لضبطه وتوجيهه .

١١ ـ سينمي تعلمها في التلاميذ تفهم الاخرين والتعاون معهم ومشاركتهم الفعالة في تحقيق الاهداف الجماعية المفيدة .

١٢ ـ سيساعد تعلمها التلاميذ على فهم معنى الحرية وحدودها وفوائدها العامة ، ثم ممارستها بشعور عال من النضج والمسؤولية دون احداث اية نتائج سلبية على الغير .

١٣ ـ سينمي تعلمها في التلاميذ فروقهم الفردية دون محاولة ضغطها او ذوبانها لغرض تحقيق العدالة او الانصاف الاجتماعي . ان العدل الاجتماعي الحقيقي في رأينا هو السماح لكل تلميذ بان ينمو ويساهم في بناء نفسه ومجتمعه حسب طاقاته وقدراته الخاصة ،دون ابطاله او اعاقته على حساب او لحساب غيره من اقرانه .

١٤ ـ سيتم تعلمها بمشاركة فعالة من التلاميذ ومن خلال مبادراتهم الفردية والجماعية .

١٥ ـ سيتم تعلمها من خلال جداول زمنية مرنة تسمح لافراد التلاميذ بالانتقال من مرحلة لاخرى ومن تعلم الى آخر حسب حاجاتهم النفسية والادراكية المرحلية التي يعيشونها .

١٦ ـ سينمي تعلمها في التلاميذ العناية بالبيئة المحلية والمحافظة عليها من التلف والتلوث .

١٧ـ سيتم تنفيذها من خلال التعاون البناء المنتظم بين المدرسة والاسرة والمجتمع المحلي تخطيطا وتطويرا وتطبيقا .

١٨ ـ سينمي تعلمها في التلاميذ القدرة على التخطيط السليم للمستقبل من خلال تنسيق كافة الامكانيات المتوفرة كالوقت والمواد والقوى العاملة والخبرات ورؤوس الاموال المحلية .

١٩ ـ سينمي تعلمها في التلاميذ الاحساس المرهف بحاجات الاخرين ومشاعرهم مع القدرة على الاستجابة البناءة المؤثرة لها .

٢٠ – سينمي تعلمها في التلاميذ القدرة الذاتية على التعلم المتواصل النشط مدى الحياة والاستفادة التلقائية المنتظمة من الخبرات والحوادث اليومية التي يواجهونها .

٢١ – ستكون شاملة متكاملة في محتواها وخبراتها ، كأن تكون ادراكية وشعورية واجتماعية وحركية خاصة بالفرد وبالجماعة ، وعملية محسوسة وواقعية ، نظرية مجردة ، نافعة لحياة التلميذ الآنية والبعيدة في المستقبل .

٢٢ – سيكون المعلم الذي يقوم بها (بالتربية المنهجية في المستقبل) متعاونا انسانا ، مؤهلا اجتماعيا ووظيفيا واكاديميا ، ويمتلك قدرات مميزة في اعمال التنظيم والتوجيه والتقييم .

٢٣ – ستكون المدرسة التي تستضيفها كافية بناءة في تسهيلاتها ، مرنة قابلة للتعديل او التغيير فيها لما يتناسب مع الانشطة المتنوعة التي تتطلبها التربية المنهجية في المستقبل .

د – مكونات وعوامل التربية المنهجية في المستقبل :

ان التغير السريع والمتواصل الذي يعتري حياتنا الانسانية بمختلف مجالاتها وأوجهها ، سيؤدي بدون شك بالتربية المنهجية في المستقبل لان تختلف في مبادئها ومكوناتها وعواملها التنفيذية من معلمين واداريين وتلاميذ ومدرسة وخدمات مساعدة عن قريناتها في التربية المنهجية التقليدية الجارية .

قد عرضنا في الفقرة السابقة (جـ) عددا من المبادىء التي ستميز التربية المنهجية في المستقبل ، وفي الفقرة الحالية سنعالج باختصار اهم الاهداف التي ستعمل هذه التربية على تحقيقها مستقبلا ، وما يمكن ان تجسده من محتوى ، ثم دور كل من التلاميذ والمعلم والمجتمع المحلي والمدرسة في القيام بها .

١ – اهداف التربية المنهجية في المستقبل :

حتى تتمكن التربية المنهجية في المستقبل من الاستجابة الفعالة لحاجات المتعلمين المختلفة ومتطلبات الحياة المتغيرة التي سيعشونها ، فان اهدافها التربوية من المحتمل ان تكون كالتالي(٧) :

□ تطوير قدرات التلاميذ على التعلم والاستفادة الفعالة من مواقفهم وخبراتهم المتواصلة خلال حياتهم في المدرسة وخارجها .

□ تطوير قدرات التلاميذ الخاصة بتخطيط تعلمهم والمبادرة والتحفز الذاتي لتحصيله .

■ تطوير قدرات التلاميذ على الاستخدام المؤثر والمرن لمعطيات بيئتهم النفسية والمادية والاجتماعية والزمنية (الوقت) .

□ تطوير قدرات التلاميذ على الاختيار السليم من معطيات متعددة مطروحة ، اي تطوير قدراتهم على الموازنة والحكم السليم على صلاحية السلوك والاشياء المتوفرة لهم ثم الاختيار لما يفيدهم منها .

□ تطوير القدرات العلمية لدى التلاميذ ، كمهارات الاتصال والقراءة والكتابة والحساب والعلاقات الانسانية والاجتماعية واستخدام البيئة والمبتكرات التكنولوجية والبحث والاستقصاء والتحليل والاستنتاج .

■ تطوير الشخصية الفردية المتكاملة للتلاميذ خلقيا واجتماعيا وادراكيا وحركيا وصحيا وجسميا .

□ تطوير القدرات التخصصية المعمقة النافعة لحياة افراد التلاميذ العملية الاكاديمية أو الاجتماعية او المهنية الحركية .

□ تطوير القدرات الاسرية لدى افراد التلاميذ ، التي تؤهلهم ليكونوا اعضاء مؤثرين عاملين في اسرهم ومجتمعهم والمساهمة الفعالة في حياتهما .

□ تطوير القدرات الفردية للتلاميذ الخاصة بالاستغلال المثمر لوقت فراغهم – تطوير الهوايات الخاصة لافراد التلاميذ .

– تطوير الشعور الوطني والانتماء الاصيل للانسان والارض والقيم المحلية ، والكفاح لكل ما هو خير وسوي وحق من قبل افراد التلاميذ بخصوصيا .

٢ ـ عناصر التربية المنهجية في المستقبل :

تتمثل العناصر الرئيسية لاية تربية منهجية في اربعة هي : الاهداف والمعرفة الاكاديمية وانشطة التعلم (والتعليم) ثم التقييم .

وقد اشرنا بايجاز في الفقرة السابقة للاهداف العامة التي يمكن ان تتبناها التربية المنهجية في المستقبل ، حيث في هذه المناسبة سنقترح المواصفات المحتملة لكل من المعرفة الاكاديمية وانشطة التعلم والتعليم والتقييم .

□ المعرفة الاكاديمية للتربية المنهجية في المستقبل :

اذا كانت التربية المنهجية التقليدية قد حافظت على بقائها طيلة العهود الماضية من تاريخ الانسانية الطويل بتقديمها للتلاميذ خليطا متنوعا من الحقائق والمفاهيم الاكاديمية التي لا يربطها معا شيء سوى انتماءها لحقل معرفي واحد ، فانها سوف لا تكون قادرة في المستقبل على الاستمرار في هذا المنوال لعدة عوامل نوجزها كما يلي :

ـ ان التربية المنهجية تعيش الان ما يسمى بعصر تفجر المعرفة ، حيث افادت احدى المصادر(٨) بأن نمو المعرفة الانسانية قد تطور من بداية التاريخ الميلادي وحتى عام ١٩٦٠ كما يلي :

* ١٧٥٠ تضاعفت المعرفة الانسانية للمرة الاولى .
* ١٩٠٠ تضاعفت المعرفة الانسانية للمرة الثانية .
* ١٩٥٠ تضاعفت المعرفة الانسانية للمرة الثالثة .
* ١٩٦٠ تضاعفت المعرفة الانسانية للمرة الرابعة .

ان اهم ما تشير اليه هذه الاحصاءات التقديرية للتربية المنهجية هو عدم امكانيتها اختيار المعرفة الاكاديمية على اساس قيمتها العملية الجارية فقط ، بل اكثر من هذا بناء على مدى الاستفادة منها واستخدامها في المستقبل .

ـ ان الحياة اليومية التي يعيشها انسان العصر بمعارفها وحوادثها المتواصلة التغير (او الحادة التغير في معظم الاحيان) ، تحتم على المعرفة المنهجية بأن لا تحد نفسها بحقائق الماضي او الحاضر النظرية ، بل تتعداها للمفاهيم والمعارف العملية القادرة على تطوير الفـرد المتكامـل الذكي باستمرار في تفاعله مع بيئته .

ـ ان المستقبل بما يكتنفه من غموض وتناقضات وتغيرات مستمرة ، وما يستلزم هذا من الافراد الاستجابة لها ومعالجتها حسب رغباتهم النفسية وخصائصهم الادراكية والجسمية والشخصية وامكانياتهم المادية الخاصة ، سيحفز في التربية المنهجية مستقبلا التخلي عن اساليبها الجماعية الى اخرى فردية وشخصية اكثر فعالية وتأثيرا . ان المعرفة المنهجية نتيجتئذ ستختلف في نوعها وبنائها العام واساليب تنظيمها وطرق ولغة تقديمها من متعلم لاخر ، او من مجموعة صغيرة الى اخرى ، اخذة في الاعتبار كذلك الاتصاف بالخصائص التالية(٩) :

* الاستمرار ، اي تتمثل المعرفة المنهجية ماضي وحاضر ومستقبل الحقل المعرفي الذي تختص به .

* التجريب والقابلية للتطبيق العملي والصلة المباشرة بخبرات التلاميذ .

* التركيز على مفهوم الذات ونموه الايجابي لدى التلاميذ .

* التكامل ، كأن تكون معرفة ادراكية وقيمية وحركية واجتماعية ، نظرية عملية ، ثم فردية خاصة واجتماعية عامة .

* الاهمية ، كأن تختص بالمواضيع التي تشغل الحياة الفردية والاجتماعية ومشاكلهما .

* الترابط ، كأن تنتظم معا بعلاقات منطقية وعضوية متتابعة يجعل تعلمها من التلاميذ سهلا ومفيدا .

* العمومية والشمول ، كأن تتمثل بدرجة رئيسية في مبادىء ومفاهيم وعموميات المعرفة دون تفاصيلها او جزئياتها .

وقد لخص هارولد شين(١٠) ـ عن مصدر اخر انواع المعرفة المنهجية لتربية المستقبل بما يلي :

النوع الاول : الفنون الجمالية والادبية والهندسية كالرسم والتصوير والموسيقى والهندسة المعمارية والشعر والنثر ..

النوع الثاني : الاساسيات في العلوم الفيزياء والاحياء وعلم النفس والاجتماع ...

النوع الثالث : علوم الماضي كالجيولوجيا والفلك والتاريخ ..

النوع الرابع : علوم السلامة واستمرار الحياة العامة كالطب والزراعة والتكنولوجيا والامن والدفاع والصحة والرياضة البدنية ..

النوع الخامس : العلوم المنظمة كالادارة السياسية والاقتصاد والقانون ...

النوع السادس : العلوم التطبيقية كالتربية والصحافة والاتصال وعلم المكتبات ...

النوع السابع : العلوم الرمزية كالرياضيات واللغات والنحو والمنطق.

النوع الثامن : العلوم التطويرية كالاحصاء والبحث العلمي والتربوي.

النوع التاسع : العلوم الدامجة كالدين والفلسفة والانظمة العامة ..

□ انشطة وخبرات التعلم :

ان اهم انشطة وخبرات التعلم للتربية المنهجية في المستقبل قد تكون في الانواع التالية(١١) .

ـ انشطة وخبرات جسمية ينمي خلالها التلاميذ مهاراتهم الحركية وقوة تحملهم مثل : الرسم وصناعة النماذج والاشكال والقيام بالرحلات الميدانية التي تتطلبها التربية المنهجية .

ـ الانشطة والخبرات الابتكارية مثل كتابة القصة والشعر والتمثيل والمحاكاة والزخرفة والرسم التعبيري والعزف الموسيقي والتصميم وتطوير المفاهيم والتجارب والاجراءات الجديدة .

ـ الخدمات العامة والمدرسية كرعاية الاحداث والمسنين والمعوقين والقيام بالاعمال والانشطة التطوعية في المستشفيات ومراكز الامومة ورياض الاطفال والمكتبات العامة والمدرسة ، والمستوصف المدرسي والجمعيات التربوية والخيرية المدرسية والتعليم الخاص للاقران والنظافة والصيانة المدرسية ...

ـ الانشطة والخبرات العملية الواقعية كالعمل في المصانع والمعامل المحلية بمختلف انواعها ، والدوائر والمكاتب الادارية والاجتماعية والاقتصادية الرسمية ، والمصالح الاقتصادية والترفيهية الخاصة كالمحلات التجارية والمخازن ومحلات البيع وستوديوهات التصوير والرسم والنوادي الثقافية والرياضية ...

ـ الانشطة والخبرات الاكاديمية مثل التجارب العملية والتمارين التطبيقية الخاصة بالمادة الدراسية ...

ـ انشطة وخبرات البحث والاستقصاء كالقيام بالدراسات والتجارب والتحليل والاستنتاج وكتابة التقارير في مجال التربية المنهجية ..

ـ انشطة وخبرات الهوايات المرتبطة بالتربية المنهجية كالنوادي الادبية والطباعة على الالة ومسابقات الشعر والقصة والقراءة السريعة في اللغات ، والانضمام لجماعة التربية الفنية والاشتراك في المعارض الفنية واعداد اللوحات والاعلانات في التربية الفنية ، ولجماعة الكشافة والجمعيات الخيرية والتنظيمية والارشاد والتوجيه في التربية الاجتماعية والدينية .

وفي كل الاحوال ، يجب ان تتصف انشطة وخبرات التعلم للتربية المنهجية في المستقبل بالخصائص التالية :

ـ ان تكون فردية ، اي ان تهدف وتخطط وتطور وتنفذ لفرض صيانة حياة الفرد المتعلم وتحسينها(١٢)

ـ ان تكون معملية ميدانية يختبر خلالها التلاميذ صلاحية المبادىء والمفاهيم التي يتعلمونها ويطورون بواسطتها ايضا مهاراتهم الاكاديمية العملية .

– ان تكون باحثة مستقصية تقوم على التحليل والدراسة والاستنتاج والربط المنطقي للعوامل والعلاقات المطروحة .

– ان تكون واقعية مرتبطة مباشرة بمظاهر الحياة الفردية والجماعية الفنية والاجتماعية والاقتصادية والاسرية والادارية والترفيهية(١٢) .

– ان تكون متنوعة في اختصاصها ومتطلباتها وكيفيات ومواعيد تنفيذها.

☐ انشطة التعليم :

تتصف انشطة التعليم للتربية المنهجية في المستقبل بالخصائص التالية:

– التنوع حسب طبيعة المادة الدراسية ووقت التعلم وخصائص افراد التلاميذ الادراكية والنفسية والاجتماعية والجسمية .

– محاكاة الواقع بالتقليد والتمثيل المسرحي والتجسيم والرسم .

– المناقشات العامة الجماعية .

– الاستخدام المكثف للبيئة المحلية بمختلف مجالاتها وامكانياتها .

– التحليل والدراسة الميدانية والاستقصاء وحل المشكلات .

– الشرح والتطبيق العملي .

– التنبؤ وتشريع مستقبل الاشياء واجراء دراسات اختبارية للتحقق من مدى حدوثها وتأثيراتها المحتملة .

☐ تقييم التعلـم :

ان اهم الخصائص التي يمكن للتقييم في التربية المنهجية في المستقبل الاتصاف بها ما يلي :

– الفردية/الشخصية ، ملاءمة التقييم لخصائص ورغبات وحاجات افراد التلاميذ الشخصية .

– الانتماء المباشر لطبيعة المهمة المنهجية .

– العملية ، اي التقييم بواسطة التطبيق العملي لما تعلمه افـراد التلاميذ غالبا .

ـ التركيز على كفايات التعميم في مواقف جديدة .

ـ الانتظام والاستمرار والمتابعة لتعلم افراد التلاميذ .

ـ الهادفية ـ الاستفادة منه دائما في توجيه تعلم التلاميذ وعناصر التربية المنهجية وعواملها الاخرى .

٣ ـ دور التلاميذ في التربية المنهجية في المستقبل :

يتصف دور التلاميذ في التربية المنهجية في المستقبل بعدة مبادىء هامة تميزهم عن اقرانهم في عصرنا الحاضر ، هي :

المبادرة والمشاركة النشطة وتحمل مسؤوليات التعلم ذاتيا . ان الدور العابر المتلقي الذي يميز معظم متعلمي اليوم سوف لا يصلح للحياة المتغيرة المقبلة ، بل سيكون مدمرا ووبالا ايضا على مستقبلهم وتطور شخصياتهم (اذا استمروا بالطبع في ذلك) .

ان اهم الوظائف التربوية التي سيتولى تلاميذ المستقبل القيام بها هي(١٤) .

□ المشاركة الفعالة في تخطيط مناهج تعلمهم الفردي ! وشبه الفردي أو تخطيطها كليا من قبلهم كلما ناسب ذلك .

□ المشاركة الفعالة في تخطيط المناهج العامة والبيئة المدرسية المساعدة للتعلم في المستقبل .

□ المبادرة الذاتية في التعلم وتحمل مسؤولياته بدرجة رئيسية .

□ المشاركة في اعمال التعليم الخاص لاقرانهم ومن يحتاج من أفراد اسرهم ومجتمعهم المحلي .

□ الجمع بين التعلم والمسؤوليات العملية/الاجتماعية المتوقعة من التلاميذ في حياة المستقبل .

□ المشاركة في الاجتماعات والجمعيات والمؤتمرات العامة الموجهة للتخطيط الاجتماعي وتطوير مظاهر الحياة المحلية والتغلب على مشاكلها ومصاعبها .

□ اجراء التجارب العملية الميدانية الخاصة بتعلمهم ، للتحقق الفوري من مدى صلاحيته وقابليته للتطبيق في الحاضر والمستقبل عند الحاجة .

٤ ـ دور المعلم في التربية المنهجية في المستقبل :

تتمثل اهم الخصائص التي ستميز دور المعلم في تربية المستقبل بما يلي(١٥) :

□ المعرفة النظرية والتطبيقية الواضحة لخصائص وحاجات المتعلمين الذين يتعامل معهم ولمبادىء علم النفس .

□ المعرفة النظرية والتطبيقية الميدانية لمبادىء التوجيه والارشاد والتنظيم والادارة الفردية الانسانية .

□ المعرفة العامة والاكاديمية الخاصة في مجال التدريس .

□ التعاون المنتظم البناء مع زملائه وافراد المجتمع المدرسي والمحلي في القيام بمسؤوليات التدريس .

□ الكفاية المميزة في الاتصال والتخاطب الانساني

□ تحمل المسؤوليات التربوية والقيام بها كمهنة تجارية ، بل كمهمة انسانية اجتماعية ووطنية يصنع بواسطتها الانسان الصالح لامته ، الذكي في سلوكه واستجابته لمتطلبات الحياة المتغيرة التي يخبرها .

٥ ـ دور المجتمع المحلي في التربية المنهجية في المستقبل .

سيقوم المجتمع المحلي بدور فعال في توجيه وانتاج تربية المستقبل اكثر منه في التربية الحالية . ان اهم مظاهر هذا الدور تتلخص بمايلي(١٦)

□ كونه كمصدر مشارك للتعلم بجانب المناهج والمؤسسات التربوية الرسمية .

□ مشاركة اعضائه في عمليات التربية المنهجية كخبراء او مساعدين سواء كان هذا في المدرسة او في المواقع والمؤسسات المحلية بمختلف انواعها .

□ قيام اعضائه وخاصة اولياء امور التلاميذ بأعمال التوجيه والنصح والتخطيط المرتبطة بتطوير مستقبل ابنائهم ومساعدتهم للتقدم الفعال في تعلمهم الفردي .

□ تقديمه لكافة التسهيلات والمواقع البيئية لاستغلالها في احداث التربية المنهجية واغنائها .

□ تقديمه للنفقات والمستلزمات المالية التي قد يتطلبها انتاج واغناء التربية المنهجية .

٦ ـ المدرسة ـ دورها وخصائصها في التربية المنهجية في المستقبل :

من المتوقع في المستقبل نتيجة التغيرات السريعة والمتواصلة التي تلف حياتنا اليومية الاسرية والاجتماعية والاقتصادية والعملية ، ان يتلاشى تدريجيا الدور التقليدي للمدرسة الحالية المتمثل في القالب بتربية الناشئة ادراكيا خلال فترات محددة من اليوم او الاسبوع او السنة ، لتحل مكانها المدرسة المفتوحة المتفاعلة مع البيئة المحلية ،القادرة على استضافة واستيعاب الانشطة التربوية والاجتماعية على مدار الساعة يوميا ، (ربما) كما هي الحال في المصانع والمعامل التي نشهدها ، اي ستتحول المدرسة الحالية من مؤسسة تربوية محدودة على نوع معين من افراد المجتمع او فئاته كالتلاميذ مثلا ، الى مركز تربوي واجتماعي شامل يضم في ثناياه مختلف الانشطة والقضايا التي تهم المجتمع المحلي وتساهم في تطويره وتقدم مظاهر حياته .

من المحتمل ان تتصف المدرسة في تربية المستقبل بالخصائص التالية(١٧) :

□ تعدد ابنيتها وتسهيلاتها . سوف لا ينحصر مفهوم المدرسة في المستقبل بمبنى واحد محاط بسياج او سور يمنع من دخوله افراد المجتمع (والتلاميذ احيانا) الا باذن الحارس او احد الاداريين . سيتوفر بدل هذا لمدرسة المستقبل عدة مواقع متناثرة في المجتمع المحلي ، (ربما)

يختص كل منها بنوع محدد من التعلم او الانشطة او المتعلمين من اعمار مختلفة . سيكون هناك بالطبع مركز رئيسي لاعمال الادارة والتنسيق ، يرتبط بالمراكز الاخرى بهواتف مرئية ودوائر تليفزيونية واذاعية مغلقة ، ويحتوي كذلك على مصادر متنوعة ومتعددة للتعلم كالمكتبة ومركز وسائل التعلم ومكاتب متخصصة للارشاد والتوجيه العلاجي التربوي والنفسي والاجتماعي والشخصي (مراكز استشارية لتطوير الشخصية الفردية) .

□ مرونة جداولها واوقات التعلم فيها : من المتوقع بان تختفي تماما الاجراس التقليدية التي تشير لتغيير الفترات الدراسية اليومية ، ليحل مكانها الساعات الحائطية والفترات التربوية المفتوحة غير المقيدة بجداول أو فترات مسبقة ، سوى رغبات المتعلمين وحاجاتهم للتعلم وقدراتهم الفردية على المثابرة .

□ تنوع مناهجها وانشطتها التربوية والاجتماعية . وهذا راجع لتحول المدرسة الى مركز للمجتمع المحلي للتعلم الاكاديمي والاجتماعي والاقتصادي ، وللاجتماعات والمؤتمرات العامة والحلقات الدراسية والتدريبية ، وللخدمات الاجتماعية والنفسية والاسرية .

□ تنوع عامليها واجراءاتها الادارية : سوف لا ينحصر عاملو المدرسة في المستقبل على الاداريين والمعلمين وعمال الخدمات المساعدة المعروفة لدينا الان ، بل تتعداهم ليشمل ذلك اولياء امور التلاميذ وخبراء المجتمع المحلي من سياسيين واداريين وصناع وزراع وتجار ومربين وادباء وفنانين وافراد عاديين . سيقود هذا التنوع في القوى العاملة المدرسية الى تنوع الاجراءات الادارية ومرونتها وبعدها عن الروتين .

■ تنوع اساليبها التعليمية وذلك لتنوع متعلميها وانشطتها ومناهجها .

□ تعدد فتراتها الدراسية كأن تكون صباحية ومسائية وليلية ،وذلك لتنوع متعلميها واختلاف صنائعهم الحياتية .

هـ ـ اساليب واتجاهات محتملة للتربية المنهجية في المستقبل :

ربما لا يكون هناك في المستقبل تربية منهجية بمقررات جماعيةاجبارية على اعداد كبيرة من التلاميذ كما هو الحال الان في تربيتنا المدرسية . بل يمكن ان يسود بدل ذلك دراسات متنوعة مفتوحة تشمل كل تخصص أو جانب حياتي ، وينتسب لها خليط متنوع من افراد المجتمع وفئاته .

والتربية المنهجية في المستقبل كما اشرنا في مناسبات متعددة من هذه الدراسة سوف لا تنحصر في المدرسة وعامليها وتسهيلاتها ، بل ستمتد لتشمل المجالات والقضايا الحياتية التي تهم المجتمع المحلي في الحاضر والمستقبل . كما ستقوم على استغلال كافة الطاقات البشرية المحلية والمواقع البيئية بمختلف انواعها وتخصصاتها . وربما يتوقف الامر بالتربية المنهجية في المستقبل عند هذا الحد ، بل من المحتمل ان تتخذ الاساليب والاتجاهات التالية(*) :

١ ــ اختفاء الجداول اليومية والفترات الدراسية والاجراس من التربية المدرسية والاستعاضة عنها بفترات عامة مفتوحة مرتبطة برغبات وحاجات وقوة تحمل المتعلمين .

٢ ــ اجازة اساليب التعلم الفردي المستقل رسميا وانتشاره بشكل واسع في التربية والتحصيل الاكاديمي والمهني . وعليه ، فقد نرى بأن بعض التلاميذ سيكونون قادرين على انهاء مناهجهم الدراسية المقررة للحصول على درجة او شهادة معينة كالثانوية المدرسية العامة مثلا في عمر عشر سنوات واخرون في عمر ستة عشر سنة وفئة ثالثة في عمر ٢٤ . .

٣ ــ انتشار اعمال التعليم الخاص من قبل اسر التلاميذ ، او بارسالهم الى معلمين خصوصيين يمدونهم حسب مناهج محددة ويؤهلونهم لاداء اختباراتها العامة المقررة ــ انتشار التربية المنزلية .

(*) ان معظم هذه الاساليب والاتجاهات تجري ممارستها الان في اصقاع مختلفة من العالم ، ولكن الجديد الذي قد يحدث عليها في المستقبل هو تعميمها في التربية المنهجية وسيادتها فيها بدل الاساليب التقليدية الجارية .

٤ ـ عودة التعلم بالتمهن وذلك باقران افراد المتعلمين بمتخصصين من البيئة المحلية ، ليتولوا نقل عاداتهم ومهاراتهم من خلال الملاحظة والتدريب المباشر لما يقوم به المختص السيد . وسيكون الفرق الرئيسي بين اساليب التمهن في المستقبل وقريناتها في العهود التربوية الماضية هو توفر المراجع والمصادر العلمية لكل مهنة او صنعة ، ليعود اليها المتعلمون لمزيد من الدقة التنفيذية ولتفهم نظري اكثر لطبيعة وخلفية مهنتهم .

٥ ـ الاستفادة المكثفة من بيوت العبادة في التربية ، والانتشار الواسع مرة اخرى للحلقات التي يتتلمذ خلالها افراد المجتمع على احد العلماء او المتخصصين لمدة كافية من الزمن تمكنهم من اكتساب علم شيخهم او سيدهم وتبني دوره فيما بعد .

٦ ـ انتشار مفهوم المحاضرات والقاعات المفتوحة . كأن تتكون المدرسة مثلا من قاعات يختص كل منها بموضوع او مهارة محددة ، يقوم بالمحاضرة / الشرح العملي فيها متخصص واحد او اكثر طيلة فترات او ساعات يومية محددة ، وحسب تسلسل او جدول يعرفه افراد التلاميذ مسبقا . يبادر كل تلميذ لحضور الموضوع الذي يستهويه او يحتاج لتعلمه في الوقت المحدد لذلك ، منتقلا الى آخر يليه وهكذا دواليك حتى ينتهي مما يريد(١٨) . سيتصف الجدول الموضوع للمحاضرات بالمرونة الزمنية وبعض التكرار ليستجيب لاوقات المتعلمين ورغباتهم النفسية .

٧ ـ انتشار المدارس المفتوحة للتربية المنهجية طيلة اشهر السنة بما فيها الصيف .

٨ ـ انتشار المدارس الصيفية للتربية المنهجية الخاصة بأولئك المتعلمين المنشغلين بأمور اسرية واجتماعية او عملية طيلة فصول السنة الاخرى ، او لأولئك المتعلمين الذين يحتاجون لتقوية في مادة اوخبرةواحدة او اكثر ، او لاقرانهم العاديين الذين يرغبون الاستزادة بعلم معين ، او الآخرين المتفوقين الذين يرغبون في تخطي مستوى دراسي أو مرحلة مدرسية بكاملها(١٩) .

٩ ــ انتشار المدارس التي تمتد التربية المنهجية فيهـا لاحدى عشر شهرا بدل تسعة اشهر .

١٠ ــ انتشار المدارس التي تمتد التربية المنهجية فيها لمدة تسعة او عشرة اسابيع يليها ثلاثة اسابيع عطلة . في هذه الحالة ، اما ان يختلف المتعلمون عن سابقيهم او يكونوا نفسهم في كل فترة(٢٠) .

١١ ــ انتشار المراكز الشعبية **Peoplés Centers** المفتوحة لكافة انواع التربية المنهجية وافراد المجتمع . يؤم المتعلمون هذه المراكز عادة للاستزادة العلمية او الاطلاع الحر والدراسة ، او للاستشارة في امر يهمهم تربويا او اجتماعيا أو شخصيا .

١٢ ــ انتشار اكاديميات الشارع **Street Academies** لتستضيف في الغالب اولئك التلاميذ المتسربين الذين يواجهون صعوبات مدرسية او سلوكية نتيجة الاساليب التربوية الجماعية . تتكون هذه الاكاديمية من غرفة واحدة او دكان على ناصية الشارع العام وتشبه في طبيعتها المقاهي أو النوادي العامة . ولكن باهداف تربوية وانسانية علاجية . يشرف على ادارة وتشغيل هذه الاكاديميات في العادة مربون وافراد متطوعون من المجتمع المحلي(٢١) ، والجهات التربوية الرسمية .

١٣ ــ تحول المدارس الى مراكز توجيه وارشاد تربوي ونفسي واجتماعي واقتصادي ــ اي الى مراكز تطوير الشخصية الفردية ، حيث تتمثل مادة مناهجها التربوية بدرجة رئيسية في المجتمع المحلي(٢٢) بقواه البشرية والاقتصادية والاجتماعية والطبيعية والعسكرية والاعلامية . يوجه المتعلمون من قبل متخصصين مقيمين بالمدرسة حسب جداول موضوعة ومرنة ، الى المجال او النشاط او الجهة البيئية المحلية التي تهمهم ، ليقوموا بتعلم ما يريدون حسب خطط تنفيذية بادروا باقتراحها ذاتيا (بمعاونة المختصين كلما لزم ذلك بطبيعة الامر) .

١٤ ــ انتشار المدارس المتخصصة بمواضيع اكاديمية مثل : مدرسة الرياضيات ، مدرسة العلوم الطبيعية ، مدرسة العلوم الانسانية ، مدرسة العلوم التطبيقية . . . حيث يقوم افراد التلاميذ والمجتمع المحلي بالانتساب اليها والتخصص في موضوعها منذ بداية تعلمهم الابتدائي .

١٥ ــ تحول المكتبات العامة وتوسعها مــن حيث مصادر التعلـم والتسهيلات لتصبح مراكز فعالــة ورئيسية للتربية المنهجيــة بمختلف تخصصاتها .

١٦ ــ انتشار المدارس البديلة **Alternatwes Schools** ، وتكون هذه في الغالب مدارس مصغرة ، او مراكز مدرسية يختص كـل منهـا باسلوب تعليمي او منهج تربوي او فلسفـة تربويـة . فجانب المدرسة التقليدية التي نعرفها حاليا ، ستتوفر مدارس مصغرة او مراكز يقـوم احدها على استخدام اساليب التعليم الفردي والمستقل ، والاخرى على الجمع بين الدراسة والعمل . وثالثة مخصصة للمعوقين في ناحية ادراكية او جسمية (او قيمية / اجتماعية) ، ورابعة تستخدم بدرجة مكثفة في تعليمها وادارتها الاباء / الامهات ، وخامسة مخصصة لتربية الهوايـات الفردية في مجال اكاديمي او مهني محدد ، وسادسة تهتم باعداد افـراد المتعلمين وظيفيا في مجال او مهنة معينة . . .(٣٢)

١٧ ــ انتشار المدارس ذي التربية المنهجية السلوكية . يحدد في هذه الحالة كل تلميذ (أو مستوى صفي) عدد السلوك او المهارات التـي يتوجب تعلمها حسب ظروف ومعايير موضوعة ، حيث ينتهي المتعلم من المنهج عندما يكون قادرا على انجاز الكفايات السلوكية المطلوبة .

و ــ الخـلاصـة :

لقد قامت الدراسة باقتراح التغييرات المحتملة التي يمكن ان تعتري التربية المنهجية في المستقبل ، محاولة تبريرها ومقترحة مايمكن ان تتصف به من مبادىء واهداف وعوامل ومكونات ، وما ستتخذه من اساليـب

واتجاهات محتملة . ويجدر التأكيد هنا بأن التحول الذي سيدخل على التربية المنهجية في المستقبل سوف لا يلغي مفهوم المنهج الدراسي وما يرتبط به من أصول وأنواع ومكونات تقليدية ، متعارف عليها بوجه عام في الحركة المنهجية المعاصرة ،ولكن التعديلات التي يمكن حدوثها ستكون غالبا في تركيزه العام وكيفية بنائه ثم ادارته واستخدامه في التربية بعدئذ. فبدل ان يركز المنهج (كما يجري حاليا) من خلال معارفه وخبراته على الماضي او الحاضر ، فانه سيمتد بها للمستقبل محاولا اعداد المتعلمين نفسيا وادراكيا وعاطفيا لاستيعابها والنجاح في ادائها / استخدامها . وبدل ان تنحصر التربية المنهجية كذلك في المدرسة والتلاميذ والاداريين المدرسيين والمعلمين والكتب المقررة ، ستمتد لتشمل الحياة الاجتماعية المحلية بمجملها ، لتتخذ من تسهيلاتها ومواقعها مدارس ميدانية لها ، ومن مربيها وخبرائها كمعلمين واداريين حقيقيين لبرامجها المتنوعة ، ومن افرادها بمختلف طبقاتهم واعمارهم كتلاميذ يبادرون بتحصيلها .

وفي كل الاحوال ، ستكون التربية المنهجية في المستقبل أكثر انسانية وعملية وفردية في استجابتها لحاجات ورغبات المتعلمين من قرينتها الحالية ، وأكثر واقعية واندماجا في الحياة المحلية ، وموجهة أكثر لتربية الفرد المتكامل الناجح في تفاعله مع البيئة المتغيرة .

☆ ☆ ☆

تعريفات ومصطلحات في البحث التربوي

ترجمة :
د. حسام الخطيب

تمهيد :

طرأت على العلوم التربوية في العقدين الاخيرين من السنين تطورات كبرى تسمح للمرء بالاعتقاد ان التربية بدأت تنجح في مواكبة التطورات المذهلة لعصرنا ، في حقل العلوم بوجه عام وفي حقل العلوم الانسانية بوجه خاص .

وكان دور المعلم واحدا من أوائل الادوار التي طرا عليها ذلك التحول الكامل ، وبالتأكيد ليس من قبيل المصادفة ان العلوم التربوية المختلفة تطورت ضمن اطار الجهود المتضافرة لادخال انماط جديدة من تدريب المعلم . ومع ان هذه العلوم تكون احيانا موضع خلاف فانها ، بنتيجة تطورها الحديث والسريع ، حظيت تقريبا بالترحاب في معظم الدول . ويزداد الاتكاء عليها مع ازدياد تبلور الحاجة ليس لتطور التعليم من الناحية الكمية فقط بل من الناحية الكيفية ايضا . وانه من أجل الاسهام في معرفة افضل لحالة التطور الذي تبلغه هذه العلوم ومن ثم للمساعدة في تأسيسها في المناطق الاكثر حرمانا ، خصص « المكتب الدولي للتربية » التابع لليونسكو سلسلة جديدة بعنوان « علوم التربية » ، واختار الاستاذ غيلبرت دو لاندشير ، مدير مختبر التربية التجريبية في جامعة (ليبج) ببلجيكا ، ليقدم اول كتاب في هذه السلسلة ، وقد نشر الكتاب حتى الان بالانكليزية والفرنسية ، ويجري العمل لترجمته الى اللغات الاخرى الحية، وفي مقدمتها اللغة العربية . وقد اخترنا الفصل الاول من هذا الكتاب المتخصص لنقدم للقارىء العربي فكرة عن اهمية تحديد التعريفات والمصطلحات في أو كل بحث من جهة ، ولنطلعه ، من جهة أخرى ، على احدث المصطلحات في عالم التربية التجريبية والبحث التربوي .

وقد جرت الترجمة عن الاصل الانكليزي مع المقارنة بالنسخة الفرنسية رغبة في الدقة ، وكذلك رغبة في الاشارة الى الفروق بين بعض المصطلحات .

الفصـــل الاول

تعريفـــات

التربية التجريبية والبحث التربوي

يرجع مصطلح (التربية التجريبية) الى نهاية القرن التاسع عشـر حينما اخترع هذا المصطلح قياسا على مصطلح « علم النفس التجريبي » ومن الناحية الاشتقاقية ، كانت كلمة (تربية) محصورة بحقل البحث في الطفولة بينما تعني اليوم التربية على مدى الحياة .

ان كلمة (تجريبية) ترتبط بنوع من التقرب الخاص الذي من خلاله يتدخل الانسان عمدا في موقف محدد لكي يجعله يتغير وفقا لتصميم مدبر. على ان الملاحظة العلمية لا تتضمن بالضرورة معالجة من هذا النوع .

وبنتيجة هذه الاسباب منذ زمن بعيد اخذ « تعبير البحث في التربية» على ان الملاحظة العلمية لاتتضمن بالضرورة معالجة من هذا النوع . منذ زمن يحل بالتدريج محل مصطلح « التربية التجريبية » .

ومن الواضح ان مصطلح « البحث التربوي » يمكن ان يكون له معنى اوسع بكثير من « التربية التجريبية » ، التي تعني بشكل رئيسي دراسة كمية تجريبية . وكما سوف نرى ، فان واحدا من الاتجاهات الاساسية في البحث المعاصر يقوم علـى اعطـاء اهمية متزايدة للمنحى الكيفـي وبالمناسبة ، يبدو واضحا ان تاريخ التربية وفلسفتها يمكن ان يتركا مكانا يقود الى دراسات مفصلة دقيقة محكمة ، ودون انكار الاهمية الاساسية للمعايير (ولاسيما في الحقل الثقافي) وللفلسفة (اي التفكير الهادف الى الوصل بين نتائج العلوم الخاصة وتنسيقها وتنظيمها ، وذلك بالاضافة الى فروع المعرفة الاخـرى ، بهدف التوصل الـى مفهوم للعالم شامـل ومتشكل وموحد) »(١) ليس في نيتنا ان نتطرق في العمل الحالي الـى هذا النوع من البحث المتعلق بهذه الانواع . فهي مبنية اساسا على احكام

القيمة وبذلك تقع خارج نطاق العلم الذي يتطلب اتفاقا حول الحقائق (لا حول المعتقدات) وبعض المقاييس من الناحية النظرية . وبعد ذلك كله اذا كان لها أن تبقى في حقل العلم فلابد لمختلف الباحثين ان يكونوا قادرين، بصرف النظر عن ميولهم الشخصية ، على الوصول الى اتفاق فيما بينهم ولو جزئيا على الاقل وذلك بمحاصرة مشكلة ما بطريقة تجعل حلها خاضعا لموجودات قائمة بين يدي الجميع ويمكن للجميع التحقق منها ، وبفصلها عن مسائل التقييم والمعتقدات .(٢) وفي التحليل الاخير يبقى تعبير «البحث التجريبي في التربية) هو الاقل عرضة لان يقودنا الى الالتباس . ولاجل هذا اخترنا ان نتبناه .(٣) .

البحث والتنمية

من اجل تجنب غموض مصطلحات مثل (بحث اساسي) و (بحث تطبيقي) — مع انهما مازالا مستعملين على النطاق العام — اقترح كرونباخ وسوبس(٤) ان يجري تمييز بين كل من البحث المتجه الى نتيجة والبحث المتجه الى قرار من جهة ، وبين « التنمية » من جهة اخرى ، وهي مصطلح يصف انتاج المواد ، والتقنيات والعمليات ، والتنظيمات ، والبيئات ، ويمثل تقدما بارزا وقابلا للقياس على ماهو موجود من قبل . وهنا تصمم المنتجات المكتملة والعمليات لتحقيق اهداف محددة بوضوح، تقع ضمن اوسع الحدود الممكنة لاهداف التربية ولذلك تكون منذ البدء معروفة جيدا ومحددة ، وهذا افضل مايميز التنمية عن البحث الذي يهدف الى التوصل الى نتيجة جرى تصورها اصلا على شكل فرضية ، ولكنها في الحقيقة لم تتقرر عن طريق الاستدلال .

ويعبر التأكيد الذي اعطي غالبا للتنمية خلال السنوات الاخيرة عن اهتمام بالتطبيقية الفورية ويمكن ان يعد رد فعل على البحث الاساسي الذي هو بعيدا جدا عن وقائع الحياة المدرسية اليومية . وقد حدث رد فعل مشابه مجددا في الاتحاد السوفييتي ، حيث اعطى احد قرارات

المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي (١٩٧٦) افضلية للبحث التربوي التطبيقي . على انه يخشى أن يؤدي تركيز قوي النبرة وغير متوازن لمصلحة التنمية الى ايقاف التقدم الحقيقي او اعاقته . ولهذا السبب تجري في بلد مثل الولايات المتحدة اعادة تعديل لمصلحة البحث الاساسي بعد ان ادى رد الفعل الى الغلو في اتجاه التنمية .

وبهذا الصدد ، يشكل نمو المعهد القومي للتربية NIE (٥) الذي تبلغ ميزانيته الان) حوالي ٩٠ مليون دولار اضاءة طيبة منذ عام ١٩٧٨ .

وفي عام ١٩٧٥ خصص المعهد القومي للتربية اربعة في المئة فقط من موارده للبحث الاساسي في العمليات التربوية الجوهرية . وقد ازداد هذا الرقم الى ٢٢٪ عام ١٩٧٩ ومن المنتظر ان يبلغ ٣٠٪ عام ١٩٨٥ .

وكان للتنمية اتجاه معكوس . فمن ٨٦٪ عام ١٩٧٥ هبطت الى ٤٦٪ عام ١٩٧٩ . ومن جهة اخرى كانت الزيادة في الموازنة من ٩٪ عام ١٩٧٤ الى ٢٣٪ عام ١٩٧٩ دليلا على الرغبة في توفير بث افضل لنتائج البحث في التطبيق وهي مشكلة حادة في العالم كله .

ومن بين الاسباب الاساسية لهذين النوعين من التحسين كانت الرغبة في التصرف ضد ما كان على الاقل اعتقادا ضمنيا بأنه لو أمكن فقط انتاج معدات لمزيد من التعليم والتقييم المتطورين لادى ذلك بالتأكيد الى استعمالها بنجاح في التطبيق التربوي . وعلى اي حال مثلما لاحظ غابنييه ، فان :

« ادخال مجموعة جديدة من المواد في الرياضيات والعلوم او القراءة الى المدرسة لا تحرز التأثير النافع مالم تتوفر ايضا اساليب تعليمية مناسبة ، وسياسات لمهمات المعلمين ، وعوامل تنظيمية ، وعدد من المتغيرات الاخرى » .(٦)

وعلى الرغم من صحة القول بانه في التعليم كل شيء يترابط مع غيره يجب ان نقر مع ذلك ان الامور المترتبة على تداخل العوامل المختلفة مازالت بعيدة عن ان تراعى من خلال اية استراتيجيات شاملة في هذا الميدان .

وتبدو الصعوبة في مستواها الاقصى لان عمل التنمية ، الذي يمكن تأدية بعضه من قبل المنفذين ، مازال في الاغلب ملكا خاصا لمراكز البحث الخاصة او الشركات التجارية الكبرى . وتفرض على المعلمين مواد من فوق ، او من الخارج دون ان تكون هناك اية مراعاة لميولهم الشخصية او للاحتياجات الخاصة لبيئتهم التعليمية .

واكثر من ذلك فماداموا لا يشاركون في اعداد المواد ، فانهم لا يفهمون بوضوح كاف كيف يتم تشغيلها ، ولذا فهم اما ان يرفضوها او يخفقوا في جني ثمرة استعمالها .

ومن هنا تأتي الاهمية الملحة بالبث الافضل للمعلومات والاهتمام المتزايد مجددا في بحث عمليات مركز حول المشكلات النوعية لعلم معين او لمجموعة صغيرة ، بالاضافة الى بحث العمل ، الهادف الى اشراك كل اولئك المعنيين بالامر . وسوف نعود الى هذين المنحيين فيما بعد .

بحث النظام وبحث السياسة*

يخشى بعض المؤلفين ، مثل ج . كيفز(٧) ، ان يكون التصنيف الذي اقترحه كرنباخ وسوبس شديد القرب من المفهوم التقليدي للتربية التجريبية ، ويفضلون التمييز الاحدث عهدا الذي وضعه . ج.س.

* اخذنا ما ورد في النص الانكليزي : بحث النظام (Discipline research)
وبحث السياسة (Policy research)
اما في النص الفرنسي فقد ورد : (Recherche de la connaissance)
وبحث القرار (recherche décisionnelle)

كولمان(٨) بين بحث النظام وبحث السياسة . وليس من المؤكد ان هذه الطريقة المختلفة للتعبير عن الاشياء تمثل اي تقدم حقيقي ، ولكن تجعل من الممكن تقديم بعض الايضاحات الاضافية .

في بحث النظام تطرح المشكلات « من داخل » نظام ويجب ان تؤدي الحلول التي يجري التوصل اليها الى تقدم نظري او الى تمهيد الطريق للتقدم . ولذا يكون تأثير بحث النظام المباشر في التطبيق التربوي عرضيا تماما حتى في اقصى الحدود .

وفي بحث السياسة ، من جهة اخرى « تتولد المشكلة خارج النظام ، في عالم العمل ، وتوجه نتائج البحث لعالم العمل ، خارج النظام »(٩)**

وهنا تصمم دراسات البحث تصميما نوعيا لتخدم المعلومات قرارات السياسة الاجتماعية ، بالمعنى الواسع ، المتراوحة بين تأثير نتائج الروائز في قرار المعلم حول تلميذ ما الى تأثير معطيات البحث في السياسةالتعليمية المطبقة على المستوى القومي(١٠).

وقد تولى ج.كيفز(١١) ، معتمدا اعتمادا مباشرا على كولمان ، تعريف نطاق وخواص هذا النوع من البحث . وسوف نعرض تحليله .

انه يميز بين نمطين رئيسيين من المتغيرات :

١ ـ المتغيرات القابلة للمعالجة . مثل تلك التي يمكن تغييرها عند توفير الموارد المتاحة(١٢) ، كالمنهاج .

٢ ـ المتغيرات الموضعية ، التي تكون اقل عرضة للمعالجة ، مثل دخل الاسرة .

** في النص الفرنسي يضاف ما يلي : وذلك لا يستبعد الوقوع ثانية في مجال بحث النظام وسوف نشير فيما بعد الى بعض الفروق بين النصين حيثما كان ذلك ضروريا
(المعرب)

ان بحث السياسة معني بشكل رئيسي بالمتغيرات من الصنف الاول ، بخلاف بحث النظام .

ويذكر كيفز اربعة وجوه اخرى للتمييز :

١ ــ بحث السياسة محدود زمنيا بضرورة اتخاذ القرار .

٢ ــ على صياغته والنتائج التي يبثها ان تكون خاضعة للغة العمل .

٣ ــ يجب ان تكون معطياته فاصلة .

٤ ــ يمكن لنتائجه ان تؤثر في تقسيم السلطة بين الاطراف المعنية .

ويمكن كذلك مراعاة تقسيمين فرعيين اخرين في بحث السياسة : البحث الذي تحكمه سياسة ، والبحث المصمم لتحديد سياسة .

ان العديد من قرارات السياسة ، ان لم يكن كلها ، يقود الى احكام قيمة والى اختيارات تجريبية . ولكن النتائج والفاعليات المترتبة على القرارات يمكن ان تكون موضوعا للدراسات بحثية تقييمية تهدف الى التوصل الى تقرير عام او عمل تصحيحي . وهذا هو غرض الدراسات المشار اليها في التقسيم الفرعي الاول .

اما بالنسبة للدراسات من الصنف الثاني ، فانها مفيدة في الاعداد لاتخاذ قرارات السياسة ، اما بناء على طلب من السلطات المحلية أو على مبادرة من الباحثين انفسهم .

والنوع الاخير من العمل يقترب بوضوح من بحث النظام ، ولكنه لا يتطابق معه .

ويستحق تصنيف كوهان النظر لانه يؤكد على العلاقة بين البحث والسياسة التربوية .

ومن اللفت للنظر حقا كيف يكون واضعو القرارات السياسية غالبا فقيري المعرفة بوجه عام بنتائج البحث التربوي . وتعد السويد استثناء

من هذا الحكم . ويمكن ان يذكر المرء بوجه خاص انه قبل خمس سنوات من اصلاح نظام التعليم الاساسي في عام ١٩٦٢ اجرت الحكومة السويدية دراسة بحثية مستفيضة « لتكشف عن جدوى بعض جوانب التعليم الشكلي لتلبية متطلبات عالم الوظائف وكذلك لتلبية الحاجات الذاتية التي يحس بها الافراد »(١٣) .

واعتمدت انكلترا على بحث السياسة فيما يتعلق بالتغيرات الهامة في بنية نظامها التعليمي . وفي بلدان اخرى ، مثل استراليا والولايات المتحدة ، يجري تقديم المعلومات المستقاة من البحث بين حين واخر في سياق المناقشات . وفي بلدان اخرى ، كما في فرنسا وبلجيكا وسويسرا ، تقدم نتائج البحوث لاولئك الذين يضعون القرارات في الحالات الاستثنائية فقط .

ان المعطيات العلمية ، وبوجه خاص تلك التي تكتسي اهمية حقيقية ، او تلك التي تنتقى لانها تنسجم مع بعض الاتجاهات الثقافية ـ تنتشر دون قصد من خلال اراء فئة المثقفين (انتلجنسيا) ثم وبشكل اوسع من خلال وسائل الاعلام . والسياسيون يكونون عادة اكثر حساسية تجاه هذه التيارات من الراي .

وطالما ظل الحال على هذا المنوال فان الانظمة التربوية ستظل معرضة جدا للاختراق لانها لا تملك دفاعا ضد التجديدات التربوية غير السليمة ، ولن يقدم السياسيون الدعم الكافي للبحث اذا لم يتوفر امم اطلاع مباشر على جدواه .

بحث العمليات والبحث ـ العمل

يوجد اليوم تمييز واضح بين بحث العمليات والبحث ـ العمل مع انهما كانا يعدان من الناحية العملية مترادفين عند عدة مؤلفين عندما نشر س. كوري كتابه :

« البحث العمل لتحسين ممارسات المدرسة »(١٤) .

ان بحث العمليات ليس في الحقيقة سوى تطبيق ذي طبيعة خاصة للبحث الكمي التشريعي . وهذا البحث ، وفقا للتعريف الواضح لج . مانجي هو :

« ... التطبيق المنظم لطرائق العلم وتقنياته .. على دراسة مشكلات التشغيل في الميادين الحكومية او التجارية او العسكرية . والهدف من هذا العمل هو التوصل الى تصور كمي صريح للعناصر الاساسية لعملية ما والعوامل التي تؤثر في النتائج وذلك لاعطاء الادارة اساسا سليما لاتخاذ القرارات »(١٥) .

وعندما يطبق هذا على الممارسة التربوية ، كما فعل هـ.تابا و . ي نويل(١٦) يصبح التقرب العام كما يلي :

١ ـ تنشأ مشكلة في غرفة الصف او في مجموعة مدرسية يتقدم باحث ذو خبرة بوصفه مرجعا لفتح حوار مع المعلمين .

٢ ـ يجري تحديد المشكلة بدقة منهجية ، وتقدم الفرضيات لحلها وتعرض لتفحص دقيق ثم يتم تبني واحدة او اثنتين منها .

٣ ـ يجري وضع معايير مناسبة .

٤ ـ تنفذ الاجراءات ويجري قياس نتائجها من وقت الى اخر .

٥ ـ يجري اخيرا تقييم ختامي .

ان هذا التقرب كفيل بان يعطي نتائج مثيرة اذا طبق تطبيقا صحيحا : اولا ، لان المسالة المطروحة جرى اختيارها من قبل المعلمين انفسهم ولذا

Recherche Opèrationelle او Operational Research
Recherche ~ Attion او Action Research
Recherche Quantitative
Quantitive Nomo thetic Research Nomo thetique
Nomothetique

تكون ذات دلالة عندهم . وثانيا لان الادوات التي يجري استخدامها او التي صممت نوعيا من اجل القياس تقدم باسلوب وظيفي ، شأنها شأن الاجراءات التي يتم اعتمادها . ان تقربا من هذا النوع يكون وسيلة قوية لضمان بث واسع للتجديد وتدريب مستمر بالتقدم للمعلمين .

وعلى اي حال يمكن ان يعترض على ذلك بان نموذج البحث المرسوم الذي يبدأ من تصريف ثابت للهدف المنشود يترك مجالا ضيقا لعفوية المعلمين وابداعهم او لارتياد البدائل : فلربما جرى اهمال بعض النتائج الايجابية غير المتوقعة ، واغفال بعض الاثار السلبية . وفي بعض الحالات الا يكون بحث العمليات طريقة للحكم في المعالجة التي تكون مصممة على نحو يجعل القرارات التي تؤخذ في القمة مقبولة حكما لدى اولئك العاملين في القاعدة . وعلى اية حال ينبغي بوضوح تجنب الموقف الابوي لبعض الباحثين ـ المشاورين .

وتقودنا هذه الملاحظات الى الاقتراب من مناقشة مهمة سوف نتناولها بالتفصيل فيما بعد وفحواها :

هل أصبح النموذج ذو الطابع الايجابي باطلا ام لا ؟ وهل ستكون الغلبة في المستقبل للتقرب من المشكلات بالاسلوب الكيفي ام الهيكلي ؟

تماما كما انه لن يكون من الواقعية في شيء ان نحذف من التعليم العالي المرحلة التي يقوم فيها معلمون ذوو خبرة ومهارة فائقتين بالافضاء الى تلاميذهم بالدروس الاساسية المستقاة من حياة التفكير والخبرة على مدى حياة كاملة ، فانه ليس هناك من سبب للظن بانه ينبغي ان تستبعد من تدريب المعلمين اثناء الخدمة ، تلك المقومات المبنية على البث المنهجي للمعرفة والمهارات .

وبالمناسبة ، هذا شيء لا يمكن ان يكون على الاطلاق غير موات لصياغة بعض المشروعات على اساس شخصي .

وعند تعريف « البحث ـ العمل » وفقا للمعنى الاول الذي اعطي له ، يعتمد س. كوري اعتمادا مباشرا على ك . ليوين الذي ابتدع هذا المصطلح في اواخر ثلاثينات هذا القرن . وانه لمهم تاريخيا ان نلاحظ ان ليوين الذي كان في ذلك الحين والى حد كبير مناصرا لـ :

« المبدا الاساسي للنموذج التحليلي ـ الاختباري ، ووضع نفسه علانية في خط من المداومة التامة على التعلق به »(١٨) . وكان قد حاول ان يربط طريقة البحث التجريبي التقليدي بهدف خاص من اهداف التغير الاجتماعي . ولذلك يكون بحث العمليات الذي اشرنا اليه قبل قليل على توافق تام مع وجهة النظر الاصلية تلك التي تبناها ليوين . الا ان المفهوم الحاضر لبحث العمل يتعارض بوضوح مع مفهوم ليوين :

« ان فكرة الموضوعية . بوصفها اشارة ، في النظرية التقليدية للقياس الى الاتفاق بين الباحثين على وصف وتاويل الظاهرة نفسها من خلال توحيد معايير الملاحظة والتحليل . هذه الفكرة رفضت من اجل ذلك لمصلحة تقرب يبدو انه يتوافق توافقا اقوى بكثير مع الطبيعة الدياليكتية والتشاركية لبحث ـ العمل . وما يدعو اليه هذا البحث في الحقيقة هو التوصل الى نوع من الاجماع العام . لا ينتج عن تطبيق قواعد معدة مسبقا بمقدار ما ينتج في تجمع اصيل لاحكام القيم الفردية باتجاه نقطة اتفاق من شانها ان تؤلف بطريقة ما النتيجة الضرورية لتفسير وتحليل الادراكات والاراء الشخصية »(١٩) .

كان من المهم ايضاح الوضع المعرفي الجوهري لبحث ـ العمل ، لا من اجل رفضه بل لنظهر منذ البدء انه ، بحكم مفهومه نفسه ، يكون قابلا للتطبيق في ميادين تحتل فيها احكام القيمة والفرضيات غير القابلة للنقض ارفع منزلة .

وللميدان الاجتماعي قصب السبق بين هذه الميادين . ففي حين ان بحث العمليات يتبنى التقرب التشريعي لحل مشكلات معينة . فان البحث

ـ العمل . الذي هو في بعض الحالات اكثر صيـغ البحـث التشـاركي تقدمـا(٢٠) . يرفض التقرب العقلي ـ التجريبي .

ولذلك لا تصبح المسألة هنا مسالة متابعة بالخطوة لخطة سبق اعدادها من قبل الباحث والتعرض فقط لمتغيرات الموقف التي كان هو الذي اختار في الاصل ان يدرسها ، وانما تصبح مسألة دفع مجموعة كاملـة معنية ببعض المشروعات التعليمية لان تطرح طرحا عفويا مسائل تنجـم عـن ممارسة عملهـا .

ان الهدف الاساسي من البحث التشاركي هو في الحقيقة تنشيط المجموعة المعنية بهدف تحقيق تنميتها الخاصة ؛ ولكنه يهدف ايضا الـى خلق معرفة يمكن ان تكون مفيدة للاخرين ؛ أي بكلمات اخرى الى خلـق حلول قابلة للتعميم .

ولذلك فانه في المقام الاول لا يقع ضمن دائرة البحث العلمي الخالص ، وانما ـ على طريقة بحث العمليات ـ يمكن له ان يسهم ايضا في تقـدم العلم ، بشرط ان يتم التأكد من نتائجه مرة تلو المرة من خلال اجراءات يمكن تكرارها مرة تلو المرة .

ان الجوانب السبعة المميزة للبحث التشاركي . كما جرى تحديدها ـ بشكل مطلق جدا ومن زاوية علمية ـ من قبل المجلس الدولي لتعليم الكبـار International council for Adult education
تظهر بوضوح ان الاهتمام بالعمل الاجتماعي هنا يحظى بافضلية علـى سائر الاهتمامات :

١ ـ تتولد المشكلة في الجماعة نفسها ، وتقوم الجماعة بتحديدهـا وتحليلها وايجاد حل لها .

٢ ـ الهدف المطلق من البحث هو التغيير الجذري للواقع الاجتماعـي وتحسـين حياة الناس المعنيين .

فالمستفيدون من البحث هم ابناء الجماعة انفسهم .

٣ ــ البحث التشاركي يقتضي المشاركة الكاملة والنشطة للجماعة في مجمل عملية البحث .

٤ ــ البحث التشاركي يشمل سلسلة كاملة من المجموعات التي لا حول لها ولا طول ــ المستغلين (بفتح الغين) ، الفقراء المضطهدين ، الهامشيين الخ ...

٥ ــ عملية البحث التشاركي تستطيع ان تخلق بين الناس وعيا اعمق لمواردهم وان تعبئهم من اجل تنمية معتمدة على الذات .

٦ ــ انه طريقة في البحث اكثر علمية من ناحية ان مشاركة الجماعة في عملية البحث تسهل توفر تحليل للواقع الاجتماعي اكثر دقة وسلامة .

٧ ــ الباحث المشارك ملتزم ومتعلم في عملية البحث التي تقوده الى تبني موقف نضالي وتبعده عن الحياد . ويقترح وردلين(٢٢) . كأمثلة، الميادين التالية للتطبيق :

١ ــ تعليم الكبار .

٢ ــ تنظيم النشاطات خارج المدرسة للاطفال .

٣ ــ اعادة تنظيم المدرسة في ضوء اهداف جديدة وبغرض زيادة كفاءتها الميدانية .

٤ ــ ادخال منهج جديد ، بما في ذلك ادخال اساليب تعليمية مناسبة .

٥ ــ تشكيل هيئة لادارة المدرسة لتحل محل المدير في بعض الشؤون .

٦ ــ ادخال التعليم المتداخل في المدارس الثانوية .

٧ ــ اعداد منهج تعليم ملائم لمنطقة نامية ، بمشاركة من قبل الجماعة المحلية .

وحتى لو كان الباحث موجودا خلال العملية كلها وفي جميع الاحوال فمن الملاحظ ان الشيء الرئيسي المقصود هو فعاليات التنمية .

وفي الحالات التي تجري فيها التجارب بطريقة متزمتة ومع تقييم صارم لابد ان تأتي النتائج على نحو ايجابي .

وعلى اي حال هناك بالضرورة نقيضتان :

الاولى انه من الصعب ان تتخيل انه من الممكن حل جميع المشكلات التنظيمية والادارية لنظام تعليمي بهذه الطريقة .

والثانية انه ، مثلما اوضحنا من قبل ، ليس المطلوب الاغراق في البحث العلمي وانما التوصل الى استراتيجية للتجديد والتنشيط .

وبهذا الصدد ، يمكن لبحث ــ العمل السليم ان يقوم بدور في احداث تحول بعيد المدى في التطبيقات التعليمية والتدريبية[٢٢] . وبعد كل شيء ، يبدو واضحا ان الطرائق الجديدة للعيش والعمل ، التي تطلب احيانا لتحل محل طرق اخرى مرتكزة الى مواقف راسخة في لاوعي الفرد ، لا يمكن ان تحيا الا اذا تبناها الفرد وصهرها وجعلها جزءا من ذاته بكل ما يتضمنه ذلك من دور التكيف السياقي ، اي اعادة التكيف مع الاحداث والظروف . وعند ذاك يحل محل النموذج التسلطي والعقيم اجتماعيا لبث المعرفة واوامر العمل نموذج من التقرب الملائم والخلاق لم يكن ممكنا تحقيقه الا من خلال المشاركة والانخراط المباشر ، وانه لتغير مستحب وكذلك اكثر كفاية (لماذا نخشى التصريح بهذه الكلمة : اكثر كفاية ؟) .

وفي الوقت الحاضر ، يطرح بشكل متكرر موضوع البحث ــ العمل في المناقشات التربوية مما يرتب علينا ان نقدم بعض الملاحظات الاضافية بشأنه .

وانه لمن الواضح أن ادراكنا للهوة الواسعة التي مازالت في حالات كثيرة ، تفصل المدارسين عن الباحثين في حقل التربية يدفعنا لارتياد اقنية جديدة يمكن من خلالها توفير اتصال اوثق واوضح بين الطرفين . وانه لمن الواضح ايضا ان عالم التربية ، الذي يطلب اليه ان يمارس صيغة من التعليم متزايدة اللطافة في حين انه يتعامل في الوقت نفسه مع جمهور تتزايد صعوبة ارضائه ، لابد له احيانا ان يجد من الصعب ان يفهم لماذا ينبغي ان تستمر موارد مادية وبشرية كبيرة في دراسة مشكلات اساسية ليس لها صلة واضحة او مباشرة بتطبيقات التعليم .

وبهذا الصدد فان رد الفعل في الاتحاد السوفييتي يحمل لنا اضاءة فعندما قامت اكاديمية العلوم التربوية بمسح كل الجمهوريات السوفييتية عام ١٩٦٦ كان البحث موجها بوضوح باتجاه العنصر الكمي ، اولا بادارة ي. كايروف وبعد ذلك بادارة ف. م. شوفستوف(٢٤) . وبالتاكيد احتل نموذج العلوم الخالصة منزلة مميزة وعلى أية حال . حين اتى عام ١٩٧٥ اتخذ رئيس هذه الاكاديمية ف. م. ستوليتوف . موقفا مضادا :

« تقودنا بعض الدراسات الى الظن بان العلم التربوي استعار طرائق الفيزياء والكيمياء والرياضيات من أجل تطوير نفسه ... ويستحيل ان يكون هناك خطأ افدح من هذا الخطأ ، واذا كان للتربية أن تقارن باي شيء فالاحرى ان تقارن بالعلوم السياسية ، بالعلوم السياسية الماركسية اللينينية » .

وقد شدد هذا الكاتب على اهمية التجربة الشعبية والتعميمات التي تقدمها لنا . ويمكن القول بلغة اقرب الى المصطلحات التربوية ان البحث ينبغي ان يرتكز على الممارسة اليومية ، وان يكون دراسة للخبرة التي اكتسبها افضل الاساتذة .

ان فكرة البحث ـ العمل ، او بعبارة ادق نوع من انواع البحث العمل ، ليست بعيدة عن هذا . وقد لقي موقف ستوليتوف استجابة اصيلة في المؤتمر السادس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي (١٩٧٦) .

وعلى اية حال ، فانه جنبا الى جنب مع رد فعل كهذا لا يهدف باي معنى من المعاني الى فتح الباب امام التفكير في رفض كل تعليل عقلي وكل ضبط للاهداف ـ الواقعية السوفييتية هي افضل ضمانة لهذا ـ يمكننا ان نلاحظ فوضى فكرية في كل مكان اخر . حيث تخدم هذه الفوضى تحت معطف البحث العمل في بعض الحالات ، لاخفاء المعالجات الاجتماعية المدبرة المريبة ، وفي حالات اخرى لاخفاء الاهمال واللاكفاية الكامنين خلف حاجز (الحدس) المزعوم او النتاجية الزمرة .

ان ف . ن . كيرلنجر حاد بوجه خاص تجاه انحرافات من هذا النوع « تلك المظاهر من مثل البحث ـ العمل . (او البحث الهادف ، او البحث المبرمج ، وفي اوربا بحث التحرر) . كلها هراء رخيص : سطو على العربات وقرصنة ، وانها لمبتوتة الصلة بما هو البحث وبما ينبغي ان يكونه »(٤٥) .

ان ما قلناه سابقا يظهر بدون ادنى شك انه ، بينما لا ينبغي انضفي الشرعية على كل اشكال البحث التشاركي الذي ـ وفق ما اظهرته الدراسات الخصبة من مثل دراسات م . غراهي(٣٦) ـ يمكن ان يتوصل الى درجة عالية من الكيفية ، اذا ظهرت فكرة مثمرة في الافق المعاصر علينا ان نحاول منعها من السفول ومن ان تطبق ثانية خبط عشواء كما هي ـ مع الاسف ـ الحال المتكررة في عالم التربية .

الحواشي والاحالات :

(١) كاردينه ، ج ، وشمونز ، مادلين :
تقييم الابحاث في التربية :
نيوشاتل ، سويسرا ، المعهد السويسري ــ الفرنسي للابحاث والتوثيق التربوي ، ١٩٧٥، ص ١٥ .

(٢) بياجية ، ج :
علم المعرفة في العلوم الانسانية ، باريس ، غاليمار ، ١٩٧٢ ، ص ٤٠ .

(٣) كان كلاباريد قد نحا منحى كلود برنار بهذا الصدد واستعمل كلمة « تجريبي بالمعنى الذي نستعمله هنا . » (ولذلك) فان كلمة خبرة Experience ، بمعناها الواسع تتضمن الملاحظة ، وهي نقيض الرأي غير السليم والترمتية . » من :
سيكلوجية الطفل والتربية التجريبية . ٢ ــ الطرائق ، ط ١٠ ، نيوشاتل، دولاشو ونستله ، ١٩٥٢ ، ص ٤٤ .

(٤) كرونباخ ، ل.ج. وسوبس ب. م. (تحرير) :
بحث من اجل مدرسة الغد : تحقيق منظم من اجل التربية . لندن ، ماكميلان ، ١٩٦٩ ، ٢٨١ ص . مع ببليوغرافيا .

(٥) المعهد القومي للتربية (الولايات المتحدة) . التقرير الخامس ، السنة المالية ١٩٧٨ ــ ١٩٧٩ . واشنطن دي سي ، ١٩٨١ .

(٦) غاتييه ، ر. ، « البحث التربوي والتنمية : في الماضي والحاضر » ، في : غلازر ، ر. ، وتولي م (تحرير) : البحث والتنمية والتغير المدرسي : نعلم البحث والتنمية ، نيويورك ، مطبعة هولستد ، ١٩٧٨ ، ص ٨٥ .

(٧) المجلس الاسترالي للبحث التربوي : التقرير السنوي التاسع والاربعون ، ١٩٧٨ ــ ١٩٧٩ ، هوثرون ، فيكتوريا . ١٩٧٩ ، ص ١٠ .

(٨) كوغان ، ج. س : بحث السياسة في العلوم الاجتماعية ، موريستاون ، نيويورك، مطبعة العلوم العامة ، ١٩٧٢ .

(٩) المصدر السابق ص ٢ .

(١٠) المجلس الاسترالي للبحث التربوي ، سبق ذكره ، ص ٢٩ .

(١١) المصدر السابق ص ٢٩ و ٣٠ .

(١٢) يبدو هذا قريبا مما يسميه بلوم المتغيرات القابلة للتبديل . ومن الواضح ان بعض المتغيرات لا يقبل التبديل : من مثل الجنس ، الخلفية المدرسية . قارن مع :

بلوم ، ب . س : حالة البحث في متغيرات منتقاة غير قابلة للتبديل في التربية ، شيكاغو ـ ايلينوي ، جامعة شيكاغو ، ١٩٨٠ .

(١٣) هوسين ، ت. ، بولت ، ج. :

البحث التربوي التغير التربوي : حالة السويد ،

ستوكهولم ، الكفيست وويكسل ، نيويورك ، وايلي ، ١٩٦٨ ، ص ٤٦ .

(١٤) كوري ، س. م. :

بحث العمل من اجل تحسين ممارسات المدرسة ، نيويورك ، كلية المعلمين ، جامعة كولومبيا ، ١٩٥٣ ، ١٦١ ص ، مع ببلوغرافيا .

(١٥) ماغي ، ج. ف .

بحث العمليات المتداخلة ، نشرة ن. أ. س. ، (نيويورك ، الرابطة القومية لمحاسبي التكلفة) ، المجلد ١٥ ، رقم ١٠ ، حزيران ١٩٥٤ ، ص ١٢٥٢ .

(١٦) تابا ، هيلدا ، نويل ، ي.

بحث العمل : حالة دراسية ، واشنطن ، دي سي ، الرابطة القومية للتربية ، ١٩٥٧ .

(١٧) انه من الناحية الفنية بعيد جدا ، والحق يقال ، عن تعقيدات التقرب العلمي الذي يتبنى مثلا من اجل حل مشكلات اقتصادية رئيسية . وعلى هذا المستوى يمكن تعريف بحث العمليات بأنه : « تطبيق العلم المعاصر على المشكلات الاحتمالية التي تثيرها ادارة الناس والآلات والمواد والمال . ويتألف تقنيا بوجه خاص من اختراع سياسة ضبط من اجل القياس ، تقارن وتتنبأ بالسلوك المحتمل بمساعدة نموذج علمي لموقف » .

بر ، س. : « بحث العمليات » في ايانافا ، س ، كاوادا ، واي .

(تحرير) : معجم موسوعي للرياضيات ، كامبردج ، ماساتشوستس . مطبعة م. آي. تي. ، ١٩٧٧ ، ص ٣٠٢ .

(١٨) بيني ، ج. « نحو تعريف لبحث العمل » ، في كالبيني ، ج. س. أول . : بحث العمل ، جنيف ، جامعة جنيف ، دائرة علم النفس والعلوم التربوية ، ١٩٨١ ، (دفتر ٢٦) .

←

(١٩) المصدر السابق ص ٢٨ .

(٢٠) فيما يتصل بذلك انظر :

ويردلن ، آي . : بحث المشاركة في التربية ، لنكوبنغ ، السويد ، جامعة لنكوبنغ ، ١٩٧٩ .

(٢١) المجلس القومي لتعليم الكبار : « تقرير موقفي حول مشروع البحث التشاركي، تورونتو ، كندا ، ١٩٧٧ » .

(٢٢) ويردلن ، آي . ، سبق ذكره ، ص ٤١ وما بعدها .

(٢٣) وبمعنى اوسع يكون هدف بحث العمل : « ربط ما يحاول البحث التقليدي فصله : النظرية والتطبيق ، البحث والعمل ، النفسي والاجتماعي ، العاطفي والذهني ، المعرفة في عملية التحول الى مفهوم والواقع في عملية التشكل ، الحتمية ـ تشكل العلوم، والحرية ـ اساس العمل » (مفهوم الوصل) . بول دوبال ، م : « تحالفات واعتمادات جديدة مجلة معهد علم الاجتماع (جامعة بركسل الحرة) ، ٣ ، ١٩٨١ ، ص ٥٨٠ (عدد خاص : بحث العمل) .

(٢٤) استقينا هذه المعلومات من :

نوفيكوف ، ل. : « مشكلات التخطيط التنظيم للبحث التربوي في الاتحاد السوفييتي» في : ديتر ، دبليو . ونوفيكوف ، ل. : البحث التربوي والسياسة الثقافية في الاتحاد السوفياتي ، التنظيم ـ المادة ـ الطريقة . فرانكفورت / ماين ، المعهد الالماني للبحث التربوي الدولي ، ١٩٧٨ .

(٢٥) كيرلنجر ، ف. ن. :

تاثير البحث في الممارسة التربوية .

(خطاب الرئيس في المؤتمر السنوي لرابطة البحث التربوي الاميركية ، نيسان ١٩٧٧ ، ص ١٢) ، دائرة علم النفس ، جامعة امستردام ، امستردام .

(٢٦) غراشي ، م. : « ضبط وتنظيم تقرب متداخل » ، التربية والبحث . (زوج وكلت وبالر ، من اجل الجمعية السويسرية للبحث في التربية) ، س٣ ، ع٢ ، ١٩٨١ ، ص ١٥١ ـ ١٨٢ ـ خلاصات بالالمانية والانكليزية .

☆ ☆ ☆

الشعرية العربية بين عنت المناطقة وعمودية التراث

د. ياسين الأيوبي

عني العرب ـ كما عنيت امم اخرى غيرهم ـ باعرق تراث لهم واكثره تمثيلا لتاريخهم ومجتمعاتهم ، وهو الشعر ، الذي ظل يحفظ في الصدور ، ويروى على الالسن قرونا طويلة ، جاعلين لـه رواة وحفظة ، واسواقا ، ومناسبات ومجالس ، تعرض لهذا الشعر وتدرسه وتنقده وتنشده وترويه ، فيحفظه الكبار قبل الصغار ، يحضون على حفظه وتعلمه ، كما جاء على لسان عمر بن الخطاب ، مخاطبا ابا موسى الاشعري : « مر من قبلك بتعلم الشعر فانه يدل على معالي الاخلاق وصواب الراي ، ومعرفة الانساب »(١) وتبعه في تكريم الشعر جل من جاء بعده من الخلفاء والصحابة والامراء ، من بينهم معاوية ، وعائشة ، والزبير بن بكار، عدا عن القصائد والابيات التي نظموها في الحرب والحكم والاخلاق والحياة الاخرة ، مما حض عليه الاسلام ، والمأثور الخلقي العربي ..

وإذا نحن ــ بعد اكثر من قرنين من الهجرة النبوية ــ أمام ارث كبير من الثروة الشعرية . سواء منها الشعراء الاعلام . أم الرواة أم النقاد والدارسون والمصنفون والشراح . مما تحصل لدينا من الكتب التي ظهرت اثناء ذلك أو بعده . وفي طليعتها « البيان والتبيين » للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وقبله الخليل بن احمد (ت ١٧٠ هـ) في كثير من كتبه ومصنفاته . ثم كتاب « قواعد الشعر » لثعلب (ت ٢٧١ هـ) و «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) وغيرهم ...

لكن هذا التراث الشعري الهائل . لم يعرف دراسة منهجيةموضوعية تنسق فنونه وانواعه . وتؤرخ لمساره التطوري . وتقف عند صنعته فتحددها وتحلل ابعادها وجذورها وعلاقاتها مع العلوم والمعارف الاخرى أو على الاقل تسن القواعد والقوانين للناشئين ، الدائرين في فلك الشعر ومجالسه ...

ان هي الا شذرات من الآراء النقدية والنصائح والقيود الشكلية والاشارات العابرة ترد هنا وهناك . في رسالة او خطبة او كتاب كدعوة الجاحظ الى العناية بالاسلوب في ميدان الشعر . مفضلا شعر الحاضرة العباسية على شعر البداوة الجاهلية . ودعوة ابن قتيبة الى المساواة بين المعنى واللفظ(٢) . وعدم التفريط بتقاليد الشعر المدحي الموروثة او ما يعرف بمواصفات القصيدة العربية القديمة ، من وقوف على الاطلال ووصف رحلة الشاعر الى الممدوح والالتفات الغزلي نحو الحبيبة ، ثم المدح ...

وبقي الامر كذلك ، حتى كان القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي حيث اتسعت رقعة الثقافة . باتساع حركة الترجمة والاقتباس . فعرف العرب فلسفة اليونان والفرس والهند وسائر الشعوب التي اختلطوا بها، وكان ابرز من تأثروا به على صعيد الفكر والكتابة . ثقافة الاغريق التي تمثلوا بها كثيرا من الحقائق والمقاييس . دأبوا على اكتسابها وادخالها في سياق تفكيرهم وتحليلهم لدرجة اصبح فيها من الصعوبة بمكان فصل الفكر اليوناني عن الفكر العربي لدى فئة كبيرة من الكتاب والشعراء والفلاسفة .

وما يهمنا في هذا الاطار . النضج الذي طرأ على منهجة « الشعرية العربية » ، والعمق والاتساع اللذان انجلت عنهما الدراسات النقدية

لدى هذا الباحث أو ذاك من نقاد القرن الرابع الهجري . وأدعاهم الى الذكر كل من محمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢ هـ) وقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) والفيلسوف ابو نصر الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) والقاضي علي الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) ...

وهم يؤلفون في الواقع . اكثر من محاولة لتأسيس نظرية متكاملة للشعرية العربية . اعني ــ الخطوط العريضة للنظرية . التي ظلت كذلك ــ اي خطوطا عريضة ــ بسبب التنازع والتشتت اللذين احدثهما اضطراب الثقافتين اليونانية والعربية داخل المحاولة التأسيسية الواحدة او المحاولات مجتمعة . وسبب هذا الاضطراب وذاك التنازع . أن المنطق الارسطي لم يجد له قبولا كافيا الا عند الفلاسفة ، اما النقاد ــ ومعظمهم شعراء . فقد ظلوا مترجحين بين قواعد السلف وعنت النصيين الذين اعتصموا بحبلين اثنين : حبل التفسير القرآني . وحبل التراث العمودي او ما يسمى بمدرسة « عمود الشعر » .

بين هذا وذاك . كانت الجهود النقدية المخلصة . تنصب على تحرير الشعر من كل سلطة أو تأثير . خارج سلطة الفن الشعري نفسه الذي راى فيه بعض النقاد ، مرجعهم ومنطلقهم . من غير التنكر لكل الاثار الاخرى التي يرون فيها اغناء لنظرياتهم وآرائهم .

وهكذا وجدنا **ابن طباطبا** يضع مفهوما واضحا ومحددا لماهية الشعر كنظام يختلف كليا عن النثر . بما خص به من النظم الذي ان عدل به عن جهته ، مجته الاسماع ، وفسر على الذوق (٣) ومن اجل ذلك يرى ضرورة الاستعانة بالعروض والادوات اللازمة لاتقان هذا العلم ، «كالتوسع في علم اللغة ، والبراعة في فهم الاعراب ، والرواية لفنون الآداب ، والمعرفة بأيام الناس وانسابهم ، والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر .

فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه ، وتكون قوافيه كالقوالب لمانيه ... وتكون الالفاظ منقادة لما تراد له ، غير مستكرهة ، ولا متعبة ، لطيفة الموالج ، سهلة المخارج . وجماع هذه الادوات كمال العقل ، الذي به تتميز الاضواء ، ولزوم العدل ، وايثار الحسن ، واجتنا بالقبيح ، ووضع الاشياء مواضعها »(٤) .

لقد وضع **ابن طباطبا** ، عددا لا بأس به من المقومات والمقاييس . لحسن صناعة الشعر ، واظهر احاطة بما ينبغي للشاعر من امتلاكه عدة لايستهان بها ، وان كان معظمها منصبا على ذوقية الفن الشعري وطبيعته النافذة الى شرفات الجمال والصياغة . ولم يهمل الناحية المنطقية في استخدام الادوات والمقاييس ؛ لجعل العقل سياجا ثبا وميزانا يقيم العدل ويحق الجمال مقام القبح . . .

ولكنه ــ مع ذلك وقع في التناقض ــ عندما حدد الصدق ، وشدد على المغزى الاخلاقي وهو في صدد توخي **الجودة** الفنية في صياغة الشعر . ويعود سبب انزلاق **ابن طباطبا** الى النظرة الاخلاقية الصارمة التي ورثها عن استاذه ابن قتيبة ، المحدث الفقيه ، كما يقول د. جابر عصفور(٥) .

ولئن وقع **ابن طباطبا** في الاضطراب والتردد في احكام ارائه و «معاييره» **فقد اوفى على** درب المعالجة العلمية الهادئة ، الموصلة لمعيار **اكثر ثباتا** وتماسكا . هو معيار قدامة **بن جعفر** في كتابه القيم « نقد الشعر » .

شغل قدامة نفسه ، بما لم يشغل به من سبقه من النقاد والدارسين هو كيفية تمييز جيد الشعر من رديئه ، اذ لايكفي معرفة الجيد والرديء الجميل والقبيح . . بل كيف نهتدي الى هذا التمييز ، وما المعايير اللازمة لذلك ؟ .

كما لا يكفي **مع** قدامة دراسة النحو والمعاني ، ولا معرفة الوزن والعروض التي هي موجودة في طبع الشاعر الموهوب ــ وانما المهم معرفة العناصر التي تجعل من هذه القصيدة جيدة ، او رديئة .

واول شيء وقف عليه قدامة ، العلاقة التي تربط المعنى الشعري بكل من اللفظ والوزن والقافية : وهي العناصر الاساسية المكونة للشعر . فراى أن الاساس في استتباب هذه العلاقة ، التوافق والانسجام بين هذه العناصر . فتحكم على المعنى داخل هذه العلاقة لا خارجها . وبذلك يكون قد صحح قدامة مسار المعيار الذي اهتدى اليه **ابن طباطبا** فنحى جانبا ، الجانب الاخلاقي الذي يرتبط بعلم الاخلاق والسلوك الانساني ،

لا السلوك الشعري . والجودة والرداءة تاتيان من داخل العناصر الشعرية فنبحث عن الاتقان في الصورة الشعرية ، بمعزل عن مدلولاتها الاجتماعية او الاخلاقية . اما المعاني ــ موضوع الشعر ــ فلا قيمة لها الا بما تؤلفه الصورة الشعرية عبرها من صنوف الجمال والجودة والتأثير . ولا يقف قدامة عند هذا الحد ، بل يتخطى المعايير المألوفة التي تنصب على سلوك الشاعر وسيرته ، داعيا الى فصل الشعر عن صاحبه والحكم على المعنى والصورة ــ وفي ذلك تأصيل جديد لأساس جديد لنظرية أخذ بها العصر الحديث وهي مذهب البنيوية في الادب . .

اما الاخلاق ، فلم يتجاهلها قدامة في معياره النقدي ، بل العكس هو الصحيح ، لان الشعر في الحقيقة ، رقي وطهارة للانسان ، ولكن قدامة يرفض ان يكون الشاعر واعظا او مرشدا اخلاقيا . وبوسع الشاعر ان يقوم بهذا الصنيع ــ ان شاء ــ من داخل الصورة الشعرية ذات الصياغة المؤثـرة . .

وقد بلغ قدامة بن جعفر في جرأته النقدية النادرة درجة اعلى ، عندما طرح مسألة الفحش والاباحية في الشعر . فقال : الفحش في المعنى شيء خاص بالشاعر . اما الشاعر ، فله محكمة فنية لا تقبل تدخلا من احد خارج نطاق الفن الشعري . وقوام هذه المحكمة ، لا الصدق ولا مطابقة الواقع أو معتقد الشاعر . . بل كيفية التصوير والتعبير التي تم فيها حبك الكلام ، ونقل الصور ، وربط الاشياء والمعاني والالفاظ بعضها ببعـض .

اذ ربما فاق المجبون ــ المتلقون للشعر ــ الشاعر حبه ومعتقده . ومع ذلك لا يملكون التعبير عن ذلك « فلا يدخلون في باب من يوصف بالشـعر »

ولعل هذه الافكار مستفادة من فلسفة ارسطو في كل من الشعـر والخطابة ، والتي تدعو الى ربط المنطق بالجوهر ، بالشكل ، عن طريق « التناسب » وهو ما فصله جيدا في كلامه عن هندسة الشعر الجيد من

تفسير ، وتصريع ، وترصيع ، وتقسيم ، وتقابل ، ومساواة ، كل ذلك ليؤكد على اهمية التناسق او التناسب الفني في شكل القصيدة .

ولا يسعنا ، ونحن نعرض لاضافات **قدامة** على من سبقه في تأصيل علم « الشعرية العربية » الا الاشادة بموقف نقدي جريء اخر ، هو رفضه لمعاني المدح التي لا تكون اصيلة في الممدوح ، ومثل ذلك في الهجاء ، حيث سخر من كل هجاء لا يرتبط مباشرة بالمهجو ، كالكلام في النسب والفقر واللون والعاهة وبشاعة المنظر وغيرها ، وبذلك يسقط من الشعر اكثره لان أكثره مديح وهجاء ، وقلما نجد معاني حقيقة ذات بعد فني اصيل(٦).

لقد افاد قدامة ، اذن من منطق اليونان وفلسفتهم فاحسن ربط الاشياء وتنسيقها وسبر اغوار المعاني والالفاظ ، وعلل تكوينها ، مطورا المفهوم الشعري نحو مزيد من الانضباط ، من خلال المنحى التعليمي الذي اخذ به(٧) ، وهو ما كانت تعاني من نقصه او اضطرابه ، الدراسات النقدية العربية ، فاوثق عراه ، وبيّن فضائله ووسائله لكنه ، انتهى الى منطقية جافة في فهم الشعر وغاياته ، لدرجة اضحى معها هذا الشعر ، او كاد قسما من اقسام الفكر المنطقي ، من غير ان يعني ذلك ، سقوط الرجل في نهاية الطريق ، لان التقدم الذي احرزه في هذا المضمار اكبر من ان يوهن من مضائه نقد ناقد او لحظ لاحظ ..

اما **ابو نصر الفارابي** ، فقد كان صاحب الفضل الاكبر في نشر الفكر الارسطي بخاصة والفكر المنطقي المنهجي بعامة ، سواء بالنسبة لشعراء عصره ، ام للفلاسفة الذين جاؤوا من بعده ، وعلى راسهم ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ ، وابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) وعلى الرغم من ان ما وصلنا منه ـ في هذا الباب ـ قليل ، الا انه من الاهمية بمكان ـ فقد لحظ الفارابي منذ الوهلة الاولى ، ان العرب قلما شعروا بالقوانين الشعرية ، وهو لذلك ، لم يشأ ترك الامر على ما هو عليه ، فاختصر كتب ارسطو وسائر الكتب المنطقية التي سبقته(٨) والف كتبا اخرى شرح فيها اصول الشعر وقوانينه ، لعل أدعاها الى الذكر والاهتمام ، مقالته التي نشرها

الدكتور عبد الرحمن بدوي ، في ترجمته لكتاب ارسطو « فن الشعر »(٩)، ومنها موجز اهم ارائه المنطقية في الشعر :

ينطلق **ابو نصر** ، لتعريف مصطلح الشعر ، من الالفاظ التي تكون مفردة ومركبة ، ومن الالفاظ المركبة ، تنشأ ما يسميه هو اقاويل (جمع اقوال ، منها ما هو جازم ومنها ما هو كاذب ، والاقاويل الشعرية ، هي من هذ النوع الكاذب الذي يوقع في السامع المحاكاة للاشياء . هذه المحاكاة توهم الشبيه ، لا النقيض ، وإلا تكون بعيدة عن مضمار الشعر . ذلك ان الاقاويل الشعرية ، غير الكاذبة ، لا تخرج عن كونها اما برهانية او جدلية او خطابية او سوفسطائية ، تبعا لدرجة الكذب او الصدق فيها .

هذا عن ماهية الشعر وتراكيبه . اما اوزانه ، فهو يرى ضرورة اختيار وتحديد الاوزان ، تبعا للموضوعات : فلا يجوز استخدام اوزان المديح للهجاء ، والمأساة للملهاة ، والعكس بالعكس ، عملا بقوانين الشعر اليوناني .

اما الشعراء ، فلا بد لهم من أن يكونوا مطبوعين او مصنوعين ، او مقلدين لهؤلاء واولئك . والمصنوعون هم العارفون بالقياس والاصول ، وهم — في نظره — هم المستحقون اسم الشعراء ... بينما المقلدون ، « من غير أن تكون لهم طباع شعرية ولا وقوف على قوانين الصناعة ، فهم أكثرهم زللا وخطأ » ..

ولم ينس **الفارابي** ، عنصري او عاملي الذات والموضوع ، من جهة تأثر الشاعر واضطراره الى سلك هذا الدرب او ذاك ، مما يسميه « القهر » اي العوامل الخارجية والنفسية الطارئة .

والفارابي من أنصار استحضار تراكيب وصور بعينها قبل الشروع بكتابة الشعر ، واكثر ما يحض عليه ، القوافي ، التي يرى صناعتها شبيهة بصناعة التزويق . (فكان اهل صناعة الشعر انساء لاهل صناعة

التزويق . مختلفان في المادة الصناعية ، متفقان في صورتها واغراضها اذ ليست الاهمية في القول او الصباغ ، بل في الصور والاغراض التي تبعث الناس وتوهمهم بالمحاكيات) .

وهكذا لم يستطع الفيلسوف ان يحل محل الشاعر او ان يجمع بينه وبين الشاعر ، لان المنهج المنطقي اغلب ، والتفكير الفلسفي اعمق : توضح النهج وعرفت الحدود ، ولكن ضاعت الشرارات التي تقف وراء الابداع سواء في مزج الالفاظ وتراكيبها ام خلق الصور ام اختيار هذا الوزن الشعري وذاك . .

ولنر ما اذا كان القاضي الجرجاني ، صاحب « الوساطة » قد تمكن من الجمع بين الحيزين : حيز المنطق الذي يقتضيه الحكم العادل ، وحيز الشعر الذي يقوم عليه المنطق الفكري المتوسط !

ابتداء ، لا بد من تحديد الخط الذي اتبعه الجرجاني في اقتفاء اسرار الصناعة الشعرية .

انه خط قدامة بن جعفر ، نفسه الذي رأيناه يسعى الى ضبط قواعد التمييز بين جيد الشعر ورديئه . فاذا بصاحب « الوساطة » لا يكتفي بذلك ، بل يقصد الى تفريغ الجيد الى نوعين : شعر جيد ، او قصيدة جيدة ، واخرى حلوة ، اي جميلة اذ « قد يكون الشيء متقنا محكما ، ولا يكون حلوا مقبولا » و « انت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفي اوصاف الكمال ، وتذهب في الانفس كل مذهب ، وتقف من التمام بكل طريق . . ثم تجد أخرى ، دونها في انتقاء المحاسن ، والتئام الخلقة ، وتناصف الاجزاء وتقابل الاقسام ، وهي احظى بالحلاوة ، وادنى الى القبول ، واعلق بالنفس واسرع ممازجة للقلب ، ثم لا تعلم لهذه المزية سببا . . » (١٠) .

مما لا شك فيه ان طرحا نقديا كهذا ، لا تجيبه عليه القواعد الجمالية السائدة ، او المألوفة ، بل لا بد من ادخاله في مضمار الابداع والعلاقة الخفية ما بين ذات المبدع وذات المتلقي ، وهي علاقة لا تخضع لاي مقياس أو قانون ، مقياسها الوحيد هو ما يسمى بالارتياح الغامض والقبول العفوي . واذن **فالجرجاني** ينفذ الى ما وراء القواعد والاصول السائدة ، نحو الابداع الحقيقي والاخذ بالجديد اللا مألوف ، على نحو ما فعل المتنبي مثلا ، في خلق تراث جديد من قلب التراث القديم ، وهو – اي **الجرجاني** – بذلك يدعو الناقد الى اقتفاء اثر الجمال انى وجده ، وعدم التقوقع داخل موروثات عفا عليها الزمن (١١) . مع الاشارة الى ان **الجرجاني** نفسه ، هو الذي سار على النهج العمودي المعروف : « بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته » والامر فيها متروك للذوق وحده ، او الطبع والرواية والاستعمال ، اما المعنى – فمحكه وميزانه العقل الصحيح .

ومع ذلك ، رأيناه يتخطى العمودية الموروثة – تطويرا ، لا تكرانا – ويفتح نافذة على اسرار الجمال الادبية ومواطن الابداع الحقيقي ، كل ذلك بفضل حسن موازنته بين الفكر المنطقي والنهج العمودي .

المراجـــع :

(١) ابن رشيق القيرواني : « العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده » تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ط ٤ ، ١٩٧٢ ج ١ / ٢٨ وما بعدها ..

(٢) عرض أبو هلال العسكري في كتابه « الصناعتين » ، ص ٧٢ ـ ٧٥ ، لآراء قدامة وضرب امثلة شعرية يدعم فيها نظرته حول تفضيل ابن قتيبة للفظ على المعنى ، والحق ان ابن قتيبة لم يكن يرجح واحدا على الآخر ، وانما هي أقسام شرحها ، وصنف النقاد على اساسها .

(٣) ابن طباطبا : « عيار الشعر » تحقيق د. محمد زغلول سلام . منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ط ١٩٨٠ ، ص ١٧ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ص ١٨ ـ ١٩ .

(٥) راجع رأيه : في كتابه « مفهوم الشعر » . دار التنوير ـ بيروت ، طبعة ثانية سنة ١٩٨٢ ،ص ٦٨ ـ ٧١ .

(٦) للتوسع في هذه الموضوعات ، راجع د. جابر عصفور «مفهوم الشعر» ص ٨٠ ـ ١٠١ .

(٧) راجع ملاحظات د. شكري عياد ، في هذا الصدد : كتابه « أرسطوطاليس في الشعر » دار الكاتب العربي ـ القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

(٨) بالاسناد الى ما قاله د. شكري عياد في المرجع السابق ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٩) « رسالة في قوانين صناعة الشعر » ضمن كتاب « فن الشعر » لارسطوطاليس . ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ، طبعة ثانية ، دار الثقافة سنة ١٩٧٢ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٨ .

(١٠) و (١١) راجع ما كتبه وحلله محي الدين صبحي ، حول هذا الموضوع ، مجلة « التراث العربي » دمشق ، السنة الثانية ، العدد الرابع : نظرية العرب في الشعريات حتى القرن السادس الهجري ، ص ٥١ ـ ٥٦ .

(١٢) الجرجاني ، « الوساطة » تحقيق : ابو الفضل ابراهيم وعلي البجاوي ، القاهرة سنة ١٩٦٦ ، ص ٢٢ .

وقد تناول كتاب الدكتور مصطفى الجوزو ، هذه الامور ، وغيرها ، بالعرض وشيء من النقد ، في أكثر من عنوان وفصل ، باحثا بدقة وامانة تطور النظرية الشعرية العربية منذ الجاهلية حتى القرن الثامن الهجري (ابن خلدون) لكنه كان يقف في الغالب الاعم عند حازم القرطاجني في نهاية القرن السابع .

وسندرس الكتاب دراسة مستقلة تقوم على استخلاص مضامينه وفوائده ، مع وقفات نقدية تتعلق بهذا الجانب او ذاك ـ ولم نشأ الرجوع اليه هنا تجنبا للتكرار .

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة

تاريخ الافكار السياسية

الجزء الاول والجزء الثاني

تاليف	مراجعة	ترجمة
جان توشار	علي الخش	ناجي الدراوشة

* * *

التغير الاجتماعي

مصادره ـ نماذجه ـ نتائجه

الجزء الاول والجزء الثاني

تاليف	مراجعة	ترجمة
اميتاي اتزيوني وايفا اتزيوني	عبد الكريم ناصيف	محمد احمد حنونة

شعر

قصيدتان :

جيلي عبد الرحمن

١ـ اخضرار المطر اليتيم

« الى الشاعر الفحل : محمد المهدي المجذوب »

اهجر الاستاطيقا
تمردا ، ام سفها ، ام ضيقا
مقتنصا حورية النهار
عبر دغل الزمن
المصفد ... المتهن
اتشهى صوتك العميقا
مرتجفا على دموع الشمس ... رجفه
أغوص في زوايا النطفه

تلوح لي مسبحة ابريقاً
يؤمه الفقراء .. ملء الدار
ترف في طيوف القوس ... رفته
فراشة ، وجلنار
عباءة الملاك وحيها ،
وتارة زنديقا
وهاطلا .. كالنار
تبارك الذي استوى .. متوجاً
مخاوقا

☆ ☆ ☆

من سبأ جئت بنبأ الرسم
احرفه وشم
تــوارب اليابسا
قل ماجسا ، ارقية ،
سرابا
واقرأ عليه « باسم »

☆ ☆ ☆

ايها الناهل تبغي صنما
يفوح مسكا ، أو دما
أيهذ الناهل
الأفق كان حلما
نسيته السواحل

« منها خلقنا .. الما
فيها نعيد النغما
يصيخ ذاك الراحلْ »

★ ★ ★

دع عنك وزر الفلسفه
جلبابك الوضيء
وتمرك الهنيء
جوهرةٌ .. لا صدفه !

★ ★ ★

نزيح وهم القبر
عن مقعد .. مقفرة
بالجمل .. المزيفه

★ ★ ★

يشب ساق المعرفة
في الجثث المرتجفه
مهلهلة .. مثل ثوب السحب
رمانة الشمس !
بستانها المقترب
شفق يكفنها كالنهاية ..
تدنو ، ولا تقترب !

★ ★ ★

وحدي أنـا .. في يدى فرائصها
واستلمت قاذفات اللهـب
وويل النجوم .. فرائصها
عدن في قبة الموت عظما
وحين يغيب القمر
وطوبى لقيظ .. تململ عقما
اذا جف في الترب شدو المطر

☆ ☆ ☆

يتامى غروبا ، شروقـا
يتيم هو المطر الزعفران
ولم يتوال .. بروقا
هو الشعر يضرم طبل الطرب
مجاذيب .. قدفات منشدها
ونيرانهم تستجير ،
وموقدهـا
لواء يسذر العيون .. عقيقا
ومنتصرون يتامى ..
أباريقهم مـن رحيق العنب
خواء ، .. وريق الظماء يجف حريقا
وسور يفرقنا .. كالبناء الخرب !

☆ ☆ ☆

مرافىء .. كانت تصوغ انتظارك
شعرا ..
تشرب شوقي اخضرارك
وقلت مزارك ، دارك .. تشرق
لكنه حلم .. كالشهب !

★ ★ ★

رمانة في حقول القصب
اتقطفها للمريد
كي ينتشي ، يستعيد !

★ ★ ★

تسافر في الشفق المنتحب
خطواته .. في البعيد .. البعيد
مهلهلة .. مثل ثوب السحب .

★ ★ ★

٢ ـ من يصطفيه التراب

« الى الحبيب .. فاروق منيب »

يفتش في كاسه عن نسب
حين تلقى به .. حانة للجذور
منكفئات الجماجم ، منطفئات الصدور
وتطرق مثل الأسارى ،
وتطرق مثل الحبيب
حين تلقى به دون ام ، واب

☆ ☆ ☆

افي النوح صداحة ،
وبالملح فواحة .. كالعشاء الأخير
جذوع النخيل .. انا منك .. لا تنظري هكذا عن كثب
وللكاس قربى ، وفي النفس ماوى لتصبى الطيور
ـ والله يعلم ـ انى امد على صدا الظل
سعف الذهب
وانا على النيل ـ كنا اثنتين
ونرحل في طميه .. كاللهب
هي البلح المشتهى ،

والفرح المنتهى

في رداء الفقير

تدوس النخيلة سجادها

ثم تحصب اسيادها ،

وتشب

★ ★ ★

كمثل النواة معفرة على كل درب

يفتش في كأسه عن نسب

لعل على البعد إلفا ،

وطيفا ،

وضيفا يعود ،

كمروحة في الهجير !

★ ★ ★

عنفوان النخيل يوسدك الترب ،

والنيل .. هل تصطفيه القبور ؟

الطائر ارتخى

للشمس اعطى ريشه المضمخا

قربت من منقاره

كقشة من داره

مالي أراك منهكا منتفخا ؟

★ ★ ★

من حسوة تنهل النفس
ياصاحبي هل مات من يحسو ؟
أدار رأسه العليل ، اطرقه
دف الجناح .. زنبقه
وحين ساخ حلمه ، واتسخا
تجوفت عيناه .. ظل عالم ، واطرقه

لاترتحل ياطائري
القول لما يكتمل في خاطري
والماء يجري ، والضحى قد شمخا

☆ ☆ ☆

دب الرحيل .. كالكرى
عصارة تسيل .. لاترى
بشارة على الثرى
الغصن عن أوكاره
واللحن عن مزماره
تغربا .. وانسلخا

☆ ☆ ☆

الطائر ارتخى
للشمس اعطى ريشه .. ماصرخا

☆ ☆ ☆

جريمة أبي سفيان والتابعين

علي الفزاني

طفلنا . كان جريمة
كيف طاوعنا هوانا وثملنا وحوالينا مفاره
يرقد التنين فيها نابه سمٌ ونار
نحن في كل الثواني
نورث العقم لأجيال بعيده
نلد الأموات ، نبني في مدارات العواصف
حلماً مثل الرّماد

آهٍ ـ يا حب الطفولة
كيف طاوعنا هوانا والتمني والظامئين
لدماءٍ في شرايين الأجنّة
آهٍ مما لا نراهُ
صور من دَمَد التاريخ شيء في المرايا
قاتم ـ كالمستحيل

◉ ◉ ◉

طفلنا ـ كان هزيمة
لانتصار الروح . في المدّ المداجي .
غربة . تمتدّ حتى لايبين
في مداها . من صوارينا ـ يقين
ربّما في المسخ نلقى بعض اطمار ـ
لهاروت الكابد
ويضيع الوجه منا والملامح
في زحام العصر . والعصر سباق ولهاث
رحلة في مدن النيران والخيل الحديد
ليس لي في ساحة الابطال الا ـ اليتون
أو فلول للماليك وظل لخضوع للمالكين

◉ ◉ ◉

طفلنا كان غوايه
فلماذا لا نواري عارنا في حفر الايام حتى لا يصير
جسداً في جوقة الجوعى ذليلاً وأسير
ما الذي في كبد الايام ، ماذا ـ يا نوار

مـا الـذي في كتـب الامـس ومـاذا مـن حـوار
طفلنـا كـان قتيـلا
قبـل ان تقصفنـا الاشـباح في عمـق المخيـم
قبـل هولاكـو وقبـل « العـار » في ارض سـدوم
سنخرّة نحـن وهـارون الرشـيد
ذهبي التـاج والشـعب رقيـق وعبيـد وجيـاع
وابـو سـفيان يلقـي ارثـه الممسوخ في كـل الفـروج
وابـو سـفيان يحيـا في الخليـج
فلمـاذا تتـوارى خلـف ظـل الكلمـات
ولمـاذا لا نفجّـر
في اغانينـا تماثيـل العصـور !

* * *

طفلنـا كـان جميـلا وطروبـا وغضـوب
لـم نكـن يومـا راينـا مقلتيـه
كتـب التاريـخ قالـت : والحكايـات كثـار
ومللنـا الانتظـار
اتـرى « جـودو » انتظرنا أم تـرى كـان الحسين ؟
ام تـرى عشـنا ـ خرافـة
اسـمعيني يـا نـوار
لـم يكـن طفـلا : ولا كـان طروبـا او غضـوب
كـان وهمـا مـن خيـالات الـرواة
فاسمعيني ـ يـا نـوار
نحـن للشمـس سـنغدو نحـرق الارث اللعـين
ثـورة اخـرى علـى التاريـخ والمجـد الكـذوب
اثينا ديسمبر ١٩٨٢ م

● ● ●

قصـــة :

نـاطق الزمـــان

جـمال الغيطاني

مفتتح

في آخر الزمان ، يقوم المهدي المنتظر ، ناطق الزمان ، يجيء الى الدنيا بعد أن يبلغ أمرها حدا لا حد بعده ، انه يعيش فيها ، لكنه خفي لايبين . وفي يوم معين ، لحظة بعينها ، قيل انها ساعة شروق الشمس ، يظهر ، فيرا ه أولا الصفوة ، ثم يعم ، عندئذ ، يقوم جنده من كل مكان من فجاج الارض ودروبها يجيئون ، آمنين ، موحدين ، فيملك الدنيا شرقها وغربها ، كما ملكها سليمان الحكيم ، وذو القرنين ، قال الثقاة انه لو ظهر ثم اختفى ، وبقي في عمر الدنيا يوم واحد ، لأطال الله عمر ذلك اليوم حتى يبعثه رب العالمين ، حينئذ تمتلىء آخر أيام الدنيا عدلا وسلاما ، من بعد أن ملئت ظلما وجورا .

جمع الكلمات :

هدأ القطار سرعته ، انزلق سامي من فوق السطح الى فراغ مابين العربات ، قفز الى الارض ، الهواء بارد ، يقول ان الشتاء بانتظاره، بـاع كل شيء من أجله ثم فـارقه . سامي نهار هجـره الضوء . في الميدان حركة ليالي الشتاء أصدقـاء يفترقون ، جنـود عابرون ، مواصلات تشح فتنقطع أوصال المدينة ، عليه أن ينتظر ، يبحث عـن مولاه من جديد ، سيجمع الحروف يضاهي الارقام ، ينبش ضفتي النيل بابرة ،وحتما يلاقيه كما قابله ، سامي الان وحيد حتى مرارتـه، بلا بطاقة شخصية . نزع كل أوراقه . ربما أذاقوه العزلة ، سجنوه، وأين مخلصه لينقذه ؟ أين ناطق الزمان ، من يجمع كلماته ليوصلها اليه ؟ سيختفي في الزحام ، يمضي الى أضرحة الاولياء ، بعينه يسأل الناس عنه ، بارهاف أذنيه ، بالذكرى المتبقية ، يزور أمه ، يرثيهـا ، ينثر القرنفل الحزين فوق قبرها يطلب منها أن تساعده ، يسألها كيف تجلى له ؟ رافقه ، أضاع ما أضاع من أجله ثم غادره .. كيف ؟ .

أول الرؤية :

سامي لم يفه بحرف ، بالدموع كاد يبكي ، عاش اللحظة الاولى ، ،عشة الميلاد ، خروجه اليومي الصباحي ، السماء زجاجية اللون ،سور باب النصر عربات نقل الرمال ، رآه قادما من ناحية جبل الدراسة ، قرص الشمس يلمس حافة الصحراء ، كل شيء أعد ، ليس صدفـة أبـدا ، رآه في خفقات النهار الاولى ، في اندفاق اللبن من انـاء الى انـاء ، سامي يعرفه ، هذا ماقرأ عنه ، قال مقتربا منه :

ــ أنت أنت ..

في الطريق يخطو الصباح طفلا واسع العينين ، رقائق هواء .

ــ لن تفارقني ياسامي ، مادمت عرفتني ، فلا يحدث هذا كثيرا في الزمـــان .

اتركني في غرفتك .. امض انت الى رزقك فأنـا لست محدودا بسكان .

« يبدأ ميلاد سامي ، فكر في اللهجة التي يواجه بها صاحب المتجر، هل يتحدث اليه بأنفه وكبرياء ؟ أو بلا مبالاة ؟ كتم ما في نفسه ، لـم يبح ، ستجيء لحظة معينة ، يدرك فيها صاحـب المتجر ، وزمـلاؤه البائعون ، والزبائن ، ماأدركه هو ، يعلمون أن سامي أول من اتبع خطى ناطق الزمان .

في المسـاء عبر كوبري الجلاء ، تعاوده لحظات قديمة ، تدفـق دما ساخنا طريا ، عودته الى البيت ، يعرف أن أمه بانتظاره ، أبـوه سيصـل بعد قليل . خروجه لمقابلة هدى ، حركة يدها ، لون نظرتهـا، رقة وجهها ، مشروعاتهما المشتركة ،تخيلهما شكـل البيت الصغـير المنتظر ، وقوفه أمام الهدايا ، يتمنى لو اشترى لها ، هذا القماش ، تلك الحقيبة ، يسرع الخطى ، يقابلها ، تضحك فرحة ، آه مـن حيرته في ليل المدينة ، البيوت قضبان سجن ، أين يذهب ؟؟ يود لو يوقف أي رجل مار ، فقط يتحدث اليه ، فترة مابين السابعة عشر وعامـه العشرين ، بسرعة مرت ، لم يعشها ، أين راحت ؟ كيف ؟؟ كأنها ستعود من جديد ، فيض الامال ، أعداد المشاريع ، لحظات مـاقبل النوم ،

الآن .. يعرف أن أيامه العطشى كأرض جفاها النيل . ستنبض من جديد . بكل ماراح . ما ضاع . صوامع الغلال الفارغة المنخورة تمتلىء من جديد . يشم رائحة التين في الطريق الضيق المحفوف . بمجرى النيل في قريته النائية . يمشي مع أبيه . سامي لم يزر بلدته منذ سنين . بعد اليوم . لن تعصاه كلمة « لو » في ميدان التحرير . أمام محل بيع الالبان . تتصدره زجاجة لبن كبيرة . آلة عصير مانجو . مناضد . همس شفاه قاوم نفسه . آه لو صرخ . يطلع فوق برج القاهرة . يدور بهيلوكبتر . يشق فراغ مابين الاهرامات . يعبر الكباري الصغيرة المصنوعة من أخشاب النخيل . يطوي مدقات الجبال . يزعق .. أبشروا .. ظهر قائم الزمان .. ناطق الزمان .. جاء العدل والسلام ..

يطل من عينيه أمان . آه ياأب اليتيم . ياعائل الشريد . يامنجي الغرقى . نطق فارتجف سامي :

ــ أحسنت .. لكل لحظة أوانها المحتوم ..

بينهما صمت شفاف نقي كماء الورد . أصوات العصر تجيء من الحارة . يسمعها سامي أيام عطلته بمفرده . ثرثرة النساء . نداءات الباعة . يتأمل ايقاع أصواتهم وتنوعها . « يا خس يا حلو قوي » . « أصلح بوابير الجاز » . « الوداع يا ملوخية » . أوان بعيدة تسقط . موقد يشتعل . صفارة نائية . مجهولة المصدر . رفع عينيه . وجه ناطق الزمان . لايمكن من خلاله تحديد العمر . ربما قال ناظر . انه مليح . شاب . ربما أكد مجرب حكيم . أنها ملامح شيخ جاوز الثمانين . محير . متى مولده ؟؟ هل لمثله أم عانت آلام المخاض ؟؟

ـ طالت رحلتي .. غدا يأتي طوال السنين ؟؟

الليلة يتم سامي عامه الثلاثين . من منتصف الليلة . ينحدر العمر . أيام رمضان الاخيرة تقول امه ، ما نصومه لن يتكرر . أيـام شبابـه أيضا ذابت ، قال ناطق الزمان انه سينزل الى العالم . خفي ، واضح . ظاهر ، باطن ، سيعرفه المقربون ، بصيته يزعقون . الامر في هـذا الزمان صعب ، عسير . منذ مئات السنين انتقل بين القرى وأسواق المدن . عبر جبال الثلوج البعيدة . الطرق الصحراوية المؤديـة الى الواحات . بعضها لاوجود له الان . لم يطلب منه أحد تصاريـح سفر . واذا استبد الفضول بمخلوق فهو طواف لا يهدأ له قرار .

ـ أما الان .. فالحذار .. الحذار .. كثر الاعداء ..

سامي الان يشم رائحة أبيه . عودته كل ليلة بأقراص الطعميـة الساخنة . أمه تقعد أمام باب الحجرة . ترتق قطع القماش القديم . تصلها ببعضها . بتأن تحاول ادخال الخيط في ثقب الابـرة . سامي يشد ثوبها . تقول : اسكت ياسامي . اسكت ياحبيبي . قال ناطق الزمان . ان الاعداء لاينتهون . منذ أن طاردوه زمن الخلفاء الامويين . ثم العباسيين . اضطر الى الاستتار في بلدة صغيرة . رقيقة . كقصيدة شعر ، نائية في الشام . اسمها سلمية . منها انطلق دعاته . غير ان الخلاف دب بين الاتباع . ظهر اكثر من واحد في المغرب . في الهند . في مصر والسودان . ادعى كل منهم انه هو ناطق الزمان . لكنهم خابوا جميعا . بقي هو مستترا . سامي ينظر الى مولاه . يسمع اقتراب الليل . يسري أعوامه الثلاثين . زمان .. زم أبوه شفتيه . فرح بنجاح ولده . قال

انه سيبيع ماأمامه وماوراءه ، سيحمل حقائب المسافرين ، يقشرعيدان القصب في مخازن محلات العصير • المهم أن يتم سامي تعليمه ،سامي دخل الجامعة ، بالتحديد كلية الطب ، ربما جاء تعيينه طبيبا لمستشفى البندر ، يمتطي الحاج سلامة أغنى مشايخ البلدة ركوبته ، يمضي الى المستشفى ، الثقة تملؤه ، الطبيب هو سامي ابن هارون القط ، أي والله هارون عرف يربي ، يقول سامي :

ــ يمكنني أن أعمل لاساعدك •• وفي نفس الوقت ••

يصيح أبوه : أبدا ، أبدا •

همس سامي وعيناه تحتويان ناطق الزمان :

ــ اينما ذهبت تتحقق الامنيات • لن يتحسر انسان •

يقترب الغروب ، لا يطيق سامي البقاء في حجرته ، كل مايراه ، يتدفق اليه • حزين • يفصله عن العالم بحر صعب العبور ، مولاه يتمتم بأدعية تنأى بالوحشة ، أصابعه تمسك طرف ردائه الابيض ، في أي عصر نسج ، من أي قماش هو ؟؟ قال ان غربته لن تطول ، لن يرى أكثر مما رآه ، هنا في مصر منذ أربعمائة وسبعين عاما ، قبض عليه العسس ، ظنوه من العربان المفسدين ، رموه في سجن الجبل ، قضى فيه مائة عام ، وازدادت تسعا ، تعاقب عليه اجيال من الحراس ، استسلم للقضاء ، أليست عذاباته بعض مما يجري في العالم ؟؟ كاد سامي يبكي، يسمع نواح أمه •

ياليتني قبلك •

طفشت في الحارة ، تشد ثياب النساء ، تهيل التراب فوق شعرها ، تعض نفسها ، تقول للرجال العابرين • راح أبـو سامي • راح مـن

يعولنا . راح رجلي . من يعولنا ؟؟ رجلي ؟؟ الفاظ توجع سامي ، ينزل ثقل في دمه ، تعريشة الاسرة انكسرت ، الدفة التوت ، الربان هوى في قاع تلقي احزانها فوق امور صغيرة وقعت . لو انه لم يذهب الى أقاربه في مصر القديمة لعاش ، لو انه رأى اخته نظلة ، راح محسورا لم يرها، لو اخذ اجازة . لم يعرف الراحة أبدا ، لكن ما نسبه هذا الى ما رآه ناطق الزمان ؟ أعذابات الكون منذ أن كانت الارض صخرا ملتهبا ، ثم نبات وحشي خال مــن الانسان ، الان الليلة ، تولــد الامال ، تمتلىء الوديان خضرة ، تمطر السـماء في أفواه المحتضرين عطشا .

ــ اذن .. أنت تعرف اليوم الذي رحل فيه أبي ..

ليس هذا فقط ، انما يعرف رعشة قلبه عندما عرف هدى . لحظــة مجيئها الى المتجر تشتري فستانا بسيطا ، تلاقي عيونهما . ادراكه مرفأ الحنين . مولاه يعرف طوافه الليلي . هدى موجودة في كل فتاة عابرة . تطل عليه من مكان خفي . معه دائما ، يتخذ في جوف الليل قرارا ، أن يمشي من الحسين حتى كوبري الجلاء . يقف عند الحد الفاصل بــين محافظتي القاهرة والجيزة . يتأمل أضـواء العوامات الخافقة . دوامات التراب الصغيرة والورق ، يلفظ اسـمها قرب الفجر بصوت عال ..هدى .

ــ مادمت اتبعك ياضيا عيني يامولاي .. فلــن اقطع الامل في رؤيتهــا .

هز الامام رأسه ، ضوء الطرقات هامس ، تنــذر السماء بهــلاك مجهول ، رآها الامام منذ ألف سنة ، ترى ماذا جال بعقول أهل الازمان البعيدة ، وهم يتطلعون الى السـماء ذاتها ، ما أثارته كل لحظة من أحلام،

الهمس المتبادل ، ناطق الزمان عرف الغروب في قرى الهند الفقيرة ، رآه في الاحساء في نجد . بين ربوع الشام والاناضول . بلاد القفقاس ، بحر الزنج ، والبحر المحيط ، تجاوزا شوارع الضجيج . خرجا الى الخط الحديدي المار قرب الحقول . المطار الصغير . الانوار الزرقاءعلى جانبي الممر . تنفذ رائحة الليل . أنفاس الزرع . الوقود المتساقط بين القضبان . المولى يتطلع . يكشف حجب المستقبل . يرى مدنا اخرى منثورة في أركان العالم . جزرا صغيرة يسكنها الاعراب والصيادون .

البحث وراء التعابير :

المراكبية لا يأخذون معهم احدا . لكن ريس هذا المركب عندما رآهما أفسح لهما مكانا رحبا . قال للناطق الزمان . انه انتظره طويلا ، عند المنحنيات الحادة في المجرى . في جري الموج . راح يغني . لصوته رائحة أرض الشراقي . المتشوقة الى الماء ، يذكر امرأة بعيدة وعيالا صغارا . يذكر مذاق البتاو البيتي . الحليب الصباحي ، رائحة خبيز الظهيرة . رحلته تستغرق شهرا كاملا . ينقل الحبوب ، الغلال . أواني الفخار . سامي يرقب خطو الليل . الليل لا ينزل من السماء . انما يطلع من النيل . من الضفتين . من هسيس الحشرات . ذرات الغبار التي تثيرها أقدام المارة فوق الطرق الريفية . يترامى اليه تصفيق وغناء . ربما فرح في قرية نائية ، تدوم الريح فتطوي الزغاريد وطلقات الرصاص . ناطق الزمان يغوص في طبقات الظلام بعينيه ، اينما ذهب يدركه البعض . يجهله آخرون ، أو يتجاهلون ، ربما أدركهم الاعداء المترصدون ، في كل مكان ينتشرون ، قال الامام انهم في البحار الكبيرة ، فوق ثلوج الجبال ، في ناطحات السحاب البعيدة ، في الاثار القديمة ، في المصارف ، قواديس السواقي ، تجاويف الطنبور ، بين آلات القطارات ، حول أذرع

السيمفونيات . في أروقـة المستشفيات ، في الابتسامات الصفـراء . ارتعاشات الجفون . لو عرفوه لانقضوا بحقد . عمره آلاف السنين . يتوارثونه . سامي يضيع في رهبة الليل . يصغي الى نبض العالم . لا يعرف كم انقضى عليه تابعا لمولاه . شهور . سنين ؟ توقف عمره عنـد الثلاثين . يبدأ من جديد . أعوامه البعيدة المنقضية بسهولة قاسية لا تصدق . كأنها سنين غيره . من يدري . ربما لو مد البصر عبر النيـل يلقي طفولته . شبابه . حارة البيرقدار . وقفته يبيع الثياب . مساومـة الزبائن تغير النهار خارج فترينة الزجاج . ليس معقولا أن ما انقضى ضاع تماما .. لابد من وجوده في مكان . زمن ما ...

يرتعش صوت الشيخ العجوز ، ناظر مدرسة ابتدائية . قال انـه رأى تباشير الامل في انطلاق الفجر كل عام . في اكتمال القمر بدرا . قال ناطق الزمان انه لا يجيء بالخوارق . لكن شيئا فشيئا يدرك العالم الحقيقة فيقوم قومة رجل واحد . سامي يقف عند آخر بيوت القرية . حافة الصحراء . يدوس بقدم في الخضرة . وقدم في الرمال . في سكون الليل يحكي الشيخ عن رجال ماتوا بعد انتظار الامام طوال حياتهم . كثيرون خرجوا يبحثون عنه ولم يرجعوا . توهج في السماء نجم وحيد . ليست المرة الاولى التي يجيء فيها الى هنا . منذ مائة عام قضى بمصر زمنا . ظهر في كافة قراها ونجوعها . لم يأمن أعداءه كهذه الفترة . يظهر في أسواق القرى . يتحدث الى باعة السمك المقلي . وقطع البطيخ . بالضبط قبل انكسار عرابي . توالت الايام . تحسس وقع الهزيمة وبدأ الحزن يفاجئه . لم يواجهه سنين سجنه الطويلة . ياه .. لا يضارعه الا حزنه العظيم كلما تذكر موت الحبيب . المنجب النجيب . ابـن بنت

رسول الله في كربلاء ، في كل عام ، عاشر محرم يقيم حدادا يكاد يهلك فيه ، لكن الحذار ، لو قضى لن يقوم أبدا ، لن يعرفه أحـد ، أبـدا يضيع ، اختبأ في ثياب الفقراء القتلى كما اختبأ من قبل في جراح ضحايا المغول بخوارزم ، انطوى مكتئبا في فوهات المدافع المنطفئة ، نـاءت أعضاؤه بالهم فاستتر ، لو أمسكه الاعداء لمزقوه قطعا أكبرها في حجم الحبات الرفيعة داخل ثمر الباماياء ، غير أن فلاحا عجوزا من هذه القرية عرفه ، تحسس سامي بعينيه البيوت في الظلام . ربما نال الفلاح الفقير في بيت من هؤلاء . ربما طبع أثر قدميه فوق التراب الذي يطؤه سامي الان ، اقتفى الفلاح خطوات الامام . اقسم الايمان . واخذ على نفسه المواثيق والعهود ، لن يعلن حقيقة الامام لاحد ، انهما غارقان في زمن الهزيمة . الفرحة غاصت من القلوب . أما الحزن فيثقل الجسيع ، شاب الاطفال . قال ناطق الزمان : ان هذه الايام البعيدة ذكرته بأيام أكثـر بعدا . عندما دخل سليم العثماني أرض مصر . ولعب سيفه في الرقاب ، فكاد ينهي الحي بها ، عندما اندفع المغول عبر بغداد ، واجتاحوا الشام في أيام ، رأى في الاعداء رجالا من قبائل الهون البربرية القديمة ، أعوان تيمورلانك ، الاسبان الغزاة ذابحو هنودالازتيك، محاربون متوحشون يأكلون لحم الانسان ، ارتعش سامي ، يكاد يسمع وقع سنابك الخيول، اصطدام السيوف بعظام الجباه ، قال ناطق الزمـان لابراهيم الفـلاح العجوز ، ربما لا ترى تحقيق الامال ، تموت محسورا ، أصر الرجل على صحبته ، زعق مناديا ربه ، عند قرية « شطب » جنوب أسيوط نسي أهله وماله ، ناطق الزمان أبوه ، كفنه بيديه ، صلى عليه ، يومها تبللت السماء بسطر ، ناءت بحمل غيوم ثقال ، زعق الناس في الصعيد ، أهذه نهاية الزمان ؟؟ أحرق الجثمان ، نثر الرماد في أركان العالم وزواياه ،

ابراهيم العجوز تبعه حتى النهاية ، لم يعرف اليأس ... بكـى ناظـر المدرسة ، العارفون به ، الذين جاؤوا من القرى المجاورة ، طافوا معـه البيوت ، يكاد سامي ان يرى الفلاح العجوز ، ابراهيم الراحل منـذ مائة عام ، ذهب ولم تتحقق الامنيات ، أما هو ، سامي فكل شيء يراه دانيا ، يدخل الجامعة يصبح طبيبا ، يسمع صوت هدى ، هدى الان قريـبة منه ، تقول :

ــ مرور سنوات لا يعني شيئا •

تقلب السكر في كوب الكركدية الساخن ، لحظات صمتها في اذنيه حديث متصـل •

ــ اسمع •• نبدأ معا • نذاكر دروس الانجليزية •

لا يرد • تتدفق في صدره رغبة ، يحتضنها ، يذيب فوق صدرها حزنه ، ارهاق أيامه ، يرقص فوق منضدة الرخام • يثب فرحا ، يهدأ ينفي آلامه ، اه لو يزعق في الناس ، تفيض عواطفه ، تعبر ضلوعه ، ولا ماسم بعد اليوم •

ــ لن يستغرق الامر سنة • تعيد دخول الامتحان • وألحقك أنا في الجامعة • ليست رغبة أبيك ••• انها رغبتي أنا يا سامي ••

يتمتم سامي ، تتبدل الاشياء ، يرق الهواء ، يقول :

ــ هدى انت رائعة ••• انت ملاك ••

ــ يا سلام يا سامي ••

تضيق ما بين حاجبيها ، يمتلىء الفراغ بينهما بالامان ، تبدو لـه سنين عمله القاسية وهما ، اسراعه ليلحق مواعيد العمـل ، الوقوف

النهاري الطويل . ابتساماته للزبائن . لم يعرف هدى خلال هذه الفترة كانت تعيش في مكان ما . قبل أن يعرفها . ينكر . لابد انه سيلتقي بانسانة تعيش الان في منزل معين . تتحدث . تأكل . ترى من هي ؟ تبرق عيناها في ذاكرته . في اتساعها يرى البلاد التي تمنى السفر اليها ، البيوت المغلقة في الشتاء ، داخلها اصوات الشارع البعيد . زعيق السكارى . هدى تحمل صينية فوقها اكواب الشاي الساخن ، بين يديه كتاب . في انفه رائحة الاثاث البيتي . تسأله عما يحب أن يأكلاه غدا ، تتصل به في العمل ، تدعوه الى غذاء خارج البيت .

ألا تذكر . اليوم عيد زواجنا الثالث .

تحلق ذقنه كل صباح . تميل تغسل ماكينة الحلاقة ، يخطف منها قبلة ، يحتضنها عند وقوفها أمام البوتاجاز .

يا سلام يا سامي . حاسب الشاي .

يدعوها الى السينما . يمضيان معا . يسمع صلاة ناطق الزمان ، حديثه الى مريديه . تضحك هدى . يبعث ابوه حيا ، مورد الوجه ، فرحا ، لا أثر لشقاء السنين حول عينيه ، ينفض الغبار عن لافتة مدرسته القديمه ، تعود طفولته . آه ما أقسى استرجاع الطفولة . يأكل كشري الحاج عبد العاطي ، يفرح لمجيء يوم الخميس ، يعقبه الجمعة ، اجازة . يسمع قبقاب ابيه العائد من صلاة الفجر ، يفرح في لحظات الهدوء بين أمه وأبيه ، يعاكس الحاج حامد مدرس الرسم الذي يقف في الفصل ، يتأكد من اغلاق الابواب والنوافذ ، يتطلع اليه الصغار ، يقول .. اسمعوا يا أولاد .. اسمعوا غناء عن مصر .. عن مصر يا أولاد ، يحمر

وجهه . ينظر الصبيةالىبعضهم . يتضاحكون . يستمر غناء الحـاج حامد . الان . يذكر مذاق صوته ، يكاد يبكيه • يتحدث الناظر ، والخفير . والرجال •• لكن لابد من مواصلة الرحيل ••

ـ أرى دبيب أقدامهم • أشعر بانتشارهم •

أدرك سامي خوف . طائر غامض في الفراغ العتيم ، هل يجرؤ انسان ؟!

ـ أنا لا يونو مني أحد • عند الخطر استتر من جديد • أذوب في الصخور •

لجأ الى الكهوف الجبلية • أغوص في عروق النحاس في قـاع منجم بعيـد •

غير أن الامنيات تتسل الى حين •

سامي يهوى . تصدمه أرض مجدبة . يسنح عمره عند افق المغيب ، تعود اليه لحظات احتضار ابيه ، رحيل هدى ، احترق قلبه يومها ، مـا الذي جرى ؟

ـ متى يجيء الاوان الذي لا بعده ولا قبله أوان يا مولاي ؟

ـ ربما بعد شهر • بعد سنة • علم هذا عند ربي •

لو يزعق سامي ، يعبر صوته الهواء ، يجفف صديد العيون . يدور مع سيور ماكينات الطحين ، ابراج الكهرباء ، الجمال المثقلة بالبوص •

ـ يكون عمري انقضى يا مولاي • لا أسمع هدى أبدا • أيرضيك ألا أسمع هدى • لا تعود من الحجاز • لا أراها بكرا من جديد • لا أدخل الجامعة • لا أداعب طفلي الصغير واسع العينين • طري العظام •

زعق ريس المركب . يلتوى القلع التواء حادا . يخف السواد . يفصح النهر عن ملامحه .

ـ نشقى من أجل الاجيال المقبلة يا ولدي . ينعم اهلها . يشربون اللبن من النهر ، يطرح نخيلهم خيرا وطمأنينة . يأوون الى مضاجعهم آمنين . الغرباء المفزعون في سواد الليالي ، يرق هواؤهم ، يصفو ماؤهم

ارتجف سامي : أين أنا عندئذ ؟ أين موقع قدمي أي احجار تثقل رأسي ؟ الظلمة تغشى عيني جمجمتي الخاويتين ؟ أحلامي تتجسد في اربعة وعشرين ضلعا ، عمود خال من النخاع ، رسغان وساعدان ، كل ما أصبو اليه : أين أنا حينئذ ؟ أين أنا ؟

يخوض مياه النهر الضحلة صياد عجوز ، يغرس حربة رفيعة مدببة في ظهر ابلاني والبياض . سامي يتأمل قدمي الرجل . منتفختان بالرطوبة والطمي . . أخبرها ان القوارب تزحم النهر . صغيرة سريعة ، في كل منها رجلان . يوقفون المراكب الكبيرة ، يفتشون اواني الفخار ، ينبشون أجولة القمح والبلح ، حتى الالات الصغيرة المرسلة في الصنادل ، يفكون تروسها . لم يبد على الرجل أنه عرفها . أيضا لم يتضح هل يجهلها ؟ لكن ما الذي دعاه الى اخبارها بهذا ؟ عاد صامتا يخوض في الماء الضحل ، نظر سامي الى مولاه ، لطالما اطبقت عليه جبال أعلى من هذه ، صخورها أقسى ، يعرف العالم شبرا شبرا ، وأرض مصر ، يعرف أي نتوء حجري عند مدخل سمالوط ، التمثال الاثري القديم قبلي جهينة ، الغرف التحتية في البناء المشيد قبل الطوفان ، حيث الجو رطوبة في الصيف ، دفء في الشتاء ، يعرف المصانع ، مواعيد تغيير الورديات ، صوت مدفع رمضان في دمنهور ، السويس ، صوته في قنا ، يحلق

الى فراغ بعيد ، ربما يرى اشياء لايراها هو ، سامي توجعه خواطر مفاجأة : ربما يعلو ازيز طائرة ، تطل منها عيون فاحصة ، تكشف المخبأ من الامال . يسكون ناطق الزمان وتابعه الامين .

جنود اللوري عند المدينة الريفية الصغيرة ، بكاء أحدهم على صدر الامام . اسمر الوجه يتوسط ذقنه وشم اخضر ، مستدير ، باهت ، رآه من زمن ، كان مادة أحلامه ، والصور التي تخللت أيامه ، أنه ابن الانفوشي . يمتلك دكانا صغيرا يبيع فيه الفول والطعمية ، رأى الامام في صباه ، في كل تجويف يفصل بلاط الرخام الصغير الــذي يرصع دكانه ، في مرض أمه وشفائها ، انتظره عند ساحل البحر ، في أبي قير ، فوق الصخور . لا شيء ، انما صخور وحشية ، مقطبة الجبين ، تلتقي التقاء صريحا بالســماء والبحر ، لم ينله يأس ، حتما ينطق الزمان ، من زرقه المياه . من ملوحة طعمها فوق الشفاه . من الطوابي القديمة . مواسير مدافع عرابي الملتفة بوثاء ... آه يا مولاي .. جئت . وأيــن ؟ هنا ، ارتجف اللوري ، لانت ذرات الرمال ، مالت عيدان القمــح ، ابتهل بقية الجنود ، دمعوا ، نزلا من اللوري ، تساءل سامي ، هــل يراهم ثانية ؟ محمد بن الانفوشي ؟ حسين نساج الكليم من فوة ، عبد الهادي عامل الاثار الصعيدي ، السائق النوبي ، قال ناطق الزمــان : حتما سيرجع يلقاهم ، هو موجود حتى لو استتر ، فوقهم ، حولهم ، لا تبعده عواصف ، لا تقصيه صفارات انذار أو دوي .

« لماذا لم يقل لهم انه ربما عاد بعد ألف سنة كما أخبرني ؟ ؟ »

بماذا يجيبون لو عرفوا ان الاعمار ربما انقضت في انتظاره ؟ استعاذ سامي بالله ، يعرف ان الاعداء يطرقون الوسائل كلها ، ربما بذروا الشك

في حقل روحه ، توجهوا الى الحجاز ، ذبحوا هدى .. يحضرون دمها الحبيب اليه ، يرمونه على عينيه فيضيع منه البصر ، يقطع من رجوعها الامل ، شربهما الكركدة ، همسهما الخفيض ، توقفهما أمام فتارين الاثاث ، متاجر التحف ، تقول هي . لابد ان يحتوي الصالون علـى فازة صينية ، تمثال محارب زنجي ، ترى الاطفال الصغار المصنوعين من الشمع في متاجر الثياب ، تهمس ، أنا احب الاطفال ، يخجل ، يتحدد الحديث ، تطلب بنتا ، يتمنى ولدا ، يكتفيان لا أكثر ، اما اذا جـاء الاول ولدا والثاني ولدا والثالث ، تضحك هدى ، لا بد ان نصبر حتى تجيء مديحة ، يسأل : لماذا مديحة بالذات ؟ لانها تحب خالتها جدا ، هي امها التي لم ترها ، لم تعرف الا هي منذ الرضاع ، يتساءل سامي : هل تذكر هدى بين جدران بيتها المغلق ما قيل ؟ ربما انجبت ابنة الان ، حجازية الجنسية ، هل اسمها مديحة أيضا ، السماء خاوية ، صحراء في عيني سامي، الذكرى تلون الاشياء تنأى بالإمام عنه ، يفيق الى وجوده .

* * *

ــ لابد أنهم يسدون مفارق الطرقات . يختبئون في عربات الرحيل .

يكاد يحس لون نظراتهم ، قسوة خوذاتهم المكسوة بشباك التمويه الهلاك في أسلحتهم ، تهب ريح عاتية ، السـماء حزينة ، الارض تقلـع ويفيض الماء ، سكت الامام لحظة كالسنين ، ثم قال انـه يعرف دربا صحراويا غرب قرية الغنايم ينتهي في صحراء السودان ، لم تطرقه قدم انسان منذ مر به يتبعه ابراهيم الفلاح العجوز ، يمضيان فيه ، يخرجان شمال اسوان ، خطت قدماه فوق الحصى ، رق الغمام ، غير ان شيخوخة غريبة ، زحفت في عروق سامي، لكم احس بقصر عمره ، في مقهى الكلوب العصري يطوف رجل ضخم ، يرتدي معطفا جلديا ، فوق ظهره رسـم

لوجه أحمر ، مشوه الملامح ، بارز الأنياب ، لا يدري أهو جن أم انسان ؟؟ أربعة شهور ، في كل يوم ، نفس الميعاد يجيء ، يضع بطاقة صغيرة فوق منضدة الرخام .

« اقرأ الكف ، حاضر ، مستقبل ، أحلام ، أمنيات سيد سعيد » .

يهز سامي رأسه ، يسقي الرجل ، حتى استبد الفضول بسامي ذات مساء شد الرجل كرسياً ، بسط سامي راحته ، ضيق الرجل عينيه ، أسند رأسه الى يده ، رأى سكة السفر ، وضيقا في العمل ، ومرضا في الصغر .

ــ لكن عمرك قصير . ولوعشت مائة سنة .

ماذا يقصد ؟؟ أي شيء يعني ؟؟ لكنه قام ، دس بطاقته في جيبه ، طلب خمسة قروش ، في هذا الوقت لم يمش على سفر هدى أسابيع ، هجره النوم ، راحة عقله متعة نائية ، لا يدرك صاحب المتجر ذرة من همومه . أما الزبائن فيشيرون أعطنا من هذا ، لا .. من الاحمر ، اقطع أربعة أمتار ، لا داعي ، نلف ونرجع ، يشرب الماء تسبقه الاقراص المنومة حكى لناطق الزمان عن عذابات الليالي ، سهره حتى مجيء الرجل العجوز مجدوع الانف . في الفجر تماما يصيح :

« يا نايم قوم وحد الدايم .. بكره تقوم القيامة .. وينصب الميزان يبقى اللي وفى يعدي » ، أما الشتي حيران » يدرك أن يوما انقضى ، يزعق الرجل ، تبقى النوافذ مغلقة ، من عشرين سنة ، اذ يقترب الفجر ، يصيح رجال الحارة على بعضهم ، الحاج حنفي جناس البهائم ، يدس يده طوال النهار في الارحام ليعرف الانثى المقبلة من الذكر ، يصيح على سعودي الجزار ، سيد الترزي ، على المكوجي ، ينادي ابوه ،

في دفء فراشه ، يسمع وقع القباقيب فوق بلاط المساكن ، اندفاق المياه من الصنابير ، تجمعهم في الحارة ، عز ليالي الشتاء ، يمضون الى الحسين اصواتهم عالية ، تبقى معلقة بين البيوت زمنا بعد ذهابهم .

آه لو يسأله سؤالا واحدا . هل ينوي الاستتار عنه . الاستتار عنه هو ! هو الذي ودع كل شيء ، لا يجرؤ على نطق الكلام ، يردده عقله ، في خطوه فوق الرمال القاسية ، تحت انصهار الشمس الذي يزرع العوسج في العيون ، يعرف ان الامام يدرك ما في خاطره ، عالم بكل شيء ، قرأ كل ما جرى وما سيجري في كتاب الجفر الذي تركه الإمام علي ، فيه رعشة الامل ، خفقة القلب ، هم الفكر ، فرحة الغريب بالعودة الى دفء البيت ، آه لو يجيب حيرته ، يفك ضيقه ، يلملم عذابه . لكنه لم يفه بحرف .

مناجاة القلوب :

ماذا يفعل بدونه ؟؟ يسحقه يأس مخرب كالغزاة ، لحيته طالت ، ملامحه تغيرت ، قبل رحيل ابيه ، موت امه ، قبل حدوث شيء مخيف ، تمر به لحظات يتجسد فيها ما هو متوقع، عند خروجه من سينما الكواكب عودته الى البيت في منتصف الليل ، يرى اللحظة التي تموت فيها أمه ، بكل سوادها الذي ينزف دما ، عندما رحلت رأي ان الموقف غير جديد عليه ، الآن يهوي قلبه بين ضلوعه ، يرى لحظة يخافها ، استتار الامام احتجابه عنه ، هل يقتل نفسه عندئذ ؟؟ وهل هذا سبيل للعثور عليه ؟؟ الان يجلسان امام كشك صغير داخله عجوز نوبي ، يحرس ملايين الاطنان من الطفلة المنتزعة من المنجم القريب ، مهجور منذ شهور ، لكن من

يتوغل أربعين كيلو مترا شمال اسوان في الصحراء ليسرق حفنة حجارة أو طين حتى ؟؟ الصخور تغرقها ، تتخذ أشكالا غريبة : وجوه آدمية ، سيوف مشرعة ، بيارق مكسورة ، فيها يرى كل شبر وطئه مع مولاه ، القرى ، الامال في العيون ، بلاد الافغان النائية التي شرعا في الرحيل اليها ، الهند ، البحار الجنوبية ، سفن صيد الحيتان ، رائحة العشب في الغابات ، قرقرة النرجيلة فوق المصاطب ، تطلع الحراس في بطاقات الغرباء ، في الصخور عيون واسعة قاسية فارقت رؤوس أصحابها ، ناطق الزمان صامت ، لماذا ؟؟ لا يتحدث عن جيوش الاعداء التي رآها ، أو غضبة الارض ساعة الزلازل ، الفيضانات ، الاوبئة تكنس البشر ، يسيح بعينيه عبر الافق ، أيكشف حجب المستقبل ، ربما ضاع منه كتاب « الجفر » الذي يحوي كل شيء ، من بعيد يحمو عويل قطار ، يفاجئه حنين المسافرين ، شعور الغربة المكثف لحظة عودة الاسرى ، لماذا يسكت الامام ؟؟ لماذا يطل الحرمان من جديد ؟؟ يكاد يصرخ ، يطلب منه ان يصارحه بما ينوي ، أما الحارس النوبي فينظر اليه وليا خاشعا ، كأنه قضى في رفقته العمر كله .

قال ان عربة لاندروفر ، تتجه الى أحشاء الصحراء ، ركابها اربعة ، يحملون اسلحة ، وآلات تصوير ، قبعاتهم تقيهم الشمس ، تابعها ببصره حتى اختفت وسط أعمدة الرمال الناعمة التي ترتفع من الارض لتتصل بزرقة السماء ساعة الظهيرة ، نعطى في الفراغ عواء ذئب ، قال الحارس العجوز ، كأنه يقدم تقريرا مفجعا ، ثمة طائرة حومت الى الشرق ، جرادة ضخمة ، يظن البحر مقصدها .

سامي يرى نفسه الان مصلوبا ساعة مغيب ، ينادي الامام ان يظهر ، يعيد ما انقضى ، كان كل ليلة يمضي الى مقهى مصطفى درويش بميدان الحسين ، يشرب الحلبة ، ينظر البنات المسرعات الى بيوتهن ، يرى رجلا مجذوبا يلف حول رأسه عمامة حمراء في لون الدم ، يلبس جاكتة عسكرية عليها شارات ونياشين . تجاورها أغطية زجاجات البيرة ، البيبسي كولا ، يرفع سيفا خشبيا ، يترصد أعداء يراهم هو ، يطارد أجانب خان الخليلي اذا ما حاولوا التقاط صورة له . صار يقف في الميدان ، لحظة الغروب ، ينادي الليل ألا يقبل ، والنهار ألا يرحل ، يرميه العيال بالطوب .. « بلعو .. بلعو .. »

عند حارة الوطاويط رآه دامي الوجه ، يمسك احدى اسنانه بيده ، أي بشر يدنو منه ، هو عدو يبغي رأس الحسين بسوء ، سامي الان يرى عنقه في قبضة جندي يسوقه الى غرفة الحجز في قسم ، يلقيه بين اللصوص في غرف الحجز . يسألونه لماذا جاء ، أي تهمة ؟ بماذا يجيب ؟ لايأخذه يأس ، يفتش تحت أخشاب الحجرة ، وراء الجدران ، في القضبان التي تسور العمر ، في غرف التعذيب في اللوريات الرمادية المغلقة ، تأتي امرأة سجين تناديه من الطريق ، يتعلق السجين بقضبان النافذة ، تحكي له عن أخبار العيال ، ذها باخيها الى المحامي من أجله ، امه بخير ، سيجذب سامي الرجل ، يتعلق بدلا منه ، يسأل المرأة ، عابري الطريق عن مولاه . آه ، يترقرق الحزن في عينيه ، يرى نفسه معتقلا ، أو نزيلا في مستشفى للامراض العقلية ، ولو .. سيبحث عنه ، ربما تخفى بين النزلاء ، في الاشجار الجرداء ، في ذرات الرمال المرشوشة بالبول ، كل صبا ح يكتب

خطابا الى هدى ، ينتظر مجيئها فجأة ، تطبع أثر قدميها فوق الارض التي مشيا عليها من قبل ، لكن .. لو القاه الاعداء فعلا وراء الاسوار من يزوره ؟ من يحمل خطاباته ليلقيها ؟ من أين يأتي بطوابع البريد ؟ روح أبيه تحوم حوله ، يرى أمه وهما عند اشجان الفجر ، آه لو يقول كلمة ، صمته ينوي روحه ، يفيض اسياجا محماة في قلب سامي ، لو كلمة ، آه يا ناطق الزمان يا امام ، العمر الطويل تمهيد للحظات الصمت هـذه ، أهكذا .. ببساطة حادة مرهفة كحد السكين .. أهكذا ؟ .

ــ القاهرة ــ

☆ ☆ ☆

الــــدجاجة

امتثال رافع

مرت ثلاثون .. ولا زلت أتذكر المشهد :

غرفة ضيقة في قبو مظلم ، لا اثر فيها للنسمة التي تحدثها رائحة الرجـل .

سرير وبضع ارائك وفراش على الارض وفوضى .. وجـدران مبقعة بالبصاق ودم الحيض والبق . وامرأة في عقدها الثالث كل ما فيها منفوش مثل ديك مشاكس ، تحمل مشنقة ! حبلا وصابوناً . تبري قطعه الصابون على الحبل وهي تكز على عظامها وأسنانها .

تلف الحبل حول عنقي وتشده من طرفيه . تنتفخ الرقبة وتجحظ العينان .. ولا أموت . أتظاهر بالمـوت .. ولا تصدقني ، وتستمر في شنقي .

أنسى طفولتي وان تلك المرأة كانت أمي .

وأنا لم أقترف ذنبا سوى انني كنت العب لعبة الامومة .

.. صغارا كنا وحدنا . أختبىء في « اليوك » كالدجاجة . أخرج حبات الحمص من جيبي . أضعها تحتي و « أربخ » فوقهــا برهــة ثم أقوقىء وأرفع رجلي ، تنفلت حبا تالحمص من تحتي وتكرج فرحة مثل الدحاحل ، يهرع اليها اخوتي الصغار الجائعين ، يلتقطونها ويزقزقون وهم يقضمونها .. ولا يحسون بقسوتها تحت اسنانهم اللبنية ، لان الجوع يجعلها في طراوة الهليون .

ويحبني الصغار ، ويعترفون بأمومتي .

وأصدق فعلا انني دجاجة تبيض حمصا لصبياننا الجائعين .

وأنسى انني اشتريت الحمص من الدكان .

يطير صيتي في الحارة .. ويأتي اولاد الحارة الي محملين بتوصيات الكبار . ويرجونني أن أبيض ذهبا .

وأعدهم أن أبيض لهم ذهبا .. كثيرا .

كان يومها خيالي شاسعا .. شاسعا ، بامتداد ...

أقضي النهار كله في الشوارع البعيدة وأنا أجمع اوراق الشوكلاته الذهبية عن الارصفة ومن بين أكوام القمامة ، حالفني الحظ وملأت جيوبي منهــا .

عدت الى البيت وقلت لاخوتي وأولاد الحارة :

سأبيض لكم كنزا .. انتظروا بعيدا ولا تقطعوا علي مخاضي .

دخلت « اليوك » ؟ قصصت الاوراق الذهبية على شكل مستدير ، بحجم قطع النقود ، « ربخت » في « اليوك » مدة أطول من تلك التي كنت أقضيها في بيض الحمص .

استعجلني الاولاد . نهرتهم وأنا العن نزقهم وسوء تقديرهم للموقف !

ان من تبيض ذهبا ليست كمن تبيض حمصا . الذهب غير الحمص .

عندما انتهيت من قص اوراق الشوكلاته الذهبية ، وكنت مأخوذة كليا بلمعانها . رصفتها على شكل الكنز الذي كنت قد تخيلته في الليل ، وجلست فوقها بحرص شديد حتى لا أفسد ترتيبها ولمعانها ، ثم قوقئت .

تدافع الاولاد ورفعوا ستارة « اليوك » .

تظاهرت بالتعب الشديد وأنا أنهض متثاقلة عن كوم الذهب . وصدقت فعلا انني أبيض ذهبا حقيقيا .. كنوزا .

بعثر الاولاد باستهتار كنزي الذي كلفني الكثير من الجهد والعرق . داسوا فوق قطعه الذهبية ، كسروا استدارتها ، وبكوا ..

كانوا جائعين .. والذهب لا يؤكل .

صاحوا معا ! بيضي لنا حمصا ، لا نريد ذهبا ، تفوه عالذهب .

كان الكبار يراقبوننا ، وما ان لمحوا بريق الذهب من بعيد حتى اندفعوا نحوه مثل العاصفة . تدافعوا وتعاركوا وتضاربوا واقتتلوا :

وكانوا من قبل يقتسمون رغيف الخبز .

اختبأت مع الاولاد في « اليوك » الذي تغمست ستارته بالدم . أخرجت من جيبي بضع حبات من الحمص وقدمتها لهم .

قالوا : ما هــذا ؟

قلت : حمص .

ولم يصدقوني .. ورفضوا أن يأكلوا .

جاء رجال الشرطة وسيارات الاسعاف . اقتحم شرطي « اليوك » وضربني بوحشية ، وتناثر الكنز .. غبارا .

ثم اكملت امي مهمة الشرطي بالمشنقة .

ومن يومها كففت عن لعبة الامومة ، وما عدت أصدق بأنني ابيض حمصا وذهبا ، أو حتى .. أطفالا .

دمشــق
١٩٨٤

* * *

صدر حديثا عن وزارة الثقافة

المرثية الدائمة

شعر

مصطفى خضر

* * *

بين المرسى والشراع

شعر

هند هارون

* * *

قصائد مشرفة على السهل

شعر

صقر عليشي

غـابـريـل غـارسـيا مـاركـيز :

« مـوتـي سيكون التجربة الوحيـدة التي لـن أتمكـن مـن الكتـابـة عنهـا »

حـوار :
فلوريان هوبف
ترجمة :
ابـراهيم وطـفي

هـزيمـة البطـل الثوري في روايـة وليـد اخـلاصي « بيت الخلد »

مـالك صقـور

بـين « الأزرق والأحـمر »

خـليـل المـوسى

التحليـل النفسي ، اليـوم

تقديم وتحليل :
نـجـوى قـلعجي

غابريل غارسيا ماركيز :

« موتي سيكون التجربة الوحيدة التي لن أتمكن من الكتابة عنها »

حوار :
فلوريان هوبف
ترجمة :
ابراهيم وطفي

ترجمة رواية « مائة عام من العزلة » للكاتب الكولومبي غابريل غارسيا ماركيس الى ٣٣ لغة وطبع منها اكثر من عشرة ملايين نسخة . وقد حصل غ. غ. ماركيس على جائزة نوبل للادب لعام ١٩٨٢ .

جرى هذا الحديث معه في ايار ١٩٨٢ في مدينة كان الفرنسية حيث كان عضوا في لجنة التحكيم الدولية في مهرجان كان السينمائي . ولم يكن هذا الحديث حديثا واحدا ، وانما كان مجموعة احاديث ودية جرت بين ماركيس وبين الصحفي والناقد الالماني فلوريان هوبف الذي كان هو ايضا عضوا في لجنة التحكيم . وقد انبثقت عن هذه الاحاديث الاسئلة والاجوبة التالية:

هوبف : في قصصك ثمة شيء يمكن وصفه بأنه سحر .

ماركيس : هذه مسألة تتعلق بكيفية رؤية المرء للواقع وتفسيره لهذا الواقع . ان الاشياء غير المألوفة التي تحدث في أمريكا اللاتينية تحدث ايضا في كل مكان آخر . لكن العقلانية الغربية لها حدود معينة . فهناك ثمة تقليد : مالا يفهمه المرء ، ينساه او يستره او يخفيه . اما نحن فاننا مهيأون لكل شيء ، وذلك لاننا نشأنا في عالم كل شيء ممكن فيه . لهـذا السبب نحن معدون لتقبل ما هو غير ممكن . هناك أشياء تبدو للاوروبيين وكأنها مما وراء الطبيعة ، في حين انها عادية جدا بالنسبة لنا .

سـؤال : ما هو اثر ذلك على قصصك ؟

ماركيس :هذا يرغمني على الايغال . يجب دفع القصة الى اقصى حد ، لنتجاوز كل واقع .

مثـال : قبل بضع سنوات كان قد مضى علي فترة طويلة لم اقم فيها بزيارة الى كارتاغينا حيث تعيش والدتي . سافرت دون ان اخبرها سلفا بحضوري . وصلت الى البيت . كان الباب مفتوحا . دخلت . لم يكن أحد في البيت . انني أعرف عادات والدتي تمام المعرفة : كنت اعلم انها في المطبخ في هذا الوقت . واذ فتحت باب المطبخ رأيتها فعلا تقف الى موقد الطبخ . وكانت تحرك الحساء . قلت : « امي ! » استدارت . نظرت الي ، وتابعت تحريك الحساء . كنت لم أرها منذ خمس سنوات . قالت : كنت اعلم انك قادم » . « من أين علمت هذا ؟ » . « لانني حلمت بذلك كل ليلة في الاسبوع الاخير . لهذا السبب طبخت لك الحساء » . وجلسنا ، اكلنا الحساء وتحدثنا ، وكأنني لم اغادرها سوى يوم امس . هناك ثمة بعد سحري في الغياب ، في الفراق . في احدى الليالي استأجرت سيارة تاكسي في مدينة تبعد مائتا كيلو متر عن كارتاغينا . ومرة اخرى لم اعلم احدا انني ساحضر . في الطريق غشيني النوم على المقعد الخلفي . وعندما استيقظت وجدت السيارة معطلة . وبدلا من ساعتين استغرقت

سفرتي ثلاث او اربع ساعات . وصلت عند بزوغ الفجر . فتح الباب . وكان هناك اخوتي وآخرون . كان احد اخوتي قد شاهد في منامه انني في الطريق وانني بحاجة الى مساعدة . انا اعتبر ذلك شيئا طبيعيا جدا . عندما تقع لشخص اوروبي مثل هذه الواقعة . فانه يحاول ان يجد لها تفسيرا عقلانيا . اما نحن فاننا ناخذها كما هي ولا نحاول ايجاد تفسير منطقي لها .

سؤال : انك لا تفصل في كتبك اذن بين العقلاني واللا عقلاني ...

ماركيس : يصعب علي جدا ان اتحدث نظريا عن كتبي . انني لا استطيع تفسير العالم والحياة سوى بمساعدة الحكايات ، وذلك لان التجريد امر غريب عني . في الجامعة قرات كانت ، لكني لم افهم شيئا البتة . ان الفلسفة الوحيدة التي افهمها هي الفلسفة الاغريقية .... وليس لدي اي تفهم او اي استعداد لتفهم فلسفة ما وراء الطبيعة ، انها لا تهمني بأي حال . ان الامر غريب : انني مثل منطاد مقيد . اطير ، احلم ، لكن ثمة حبل يربطني بالارض . لهذا السبب تراني اخاف من الطيران .

سؤال : هل لديك صعوبات لدى الكتابة ، شكوك ؟

ماركيس : طبعا . وهذا لحسن الحظ . ستكون النهاية لو اصبحت يوما ما عقائديا وشعرت بقدرتي على كل شيء . انني اخاف من الكتابة . في فترة معينة ، كنت اتقيا عندما كنت اجلس في الصباح الى الالة الكاتبة . كنت مضطرا لقسر نفسي على الكتابة . الان تعلمت شيئا يصلح للكتابة ، للحياة ، للطيران : حتى لو اصبت بالخوف من امر ما ، فانني سانجز هذا الخبر ، وهذا يعني ان الخوف هو شيء طبيعي . انني مكلف بتسليم مقالة كل يوم خميس . كل يوم اربعاء اقول لنفسي : ربما لا اكتب هذه المرة شيئا رغما عن كل خوف وان الامر سينتهي بسلام . في البداية اقول

لنفسي وانا مكتئب : خراء . لكن في النهاية يمشي الحال . لقد تعلمت انه لا يجوز للمرء أن يخاف من خوفه . والا يأتي يوم لا يمشي فيه الحال (عين الحسود فيها عود !) . ربما كان الخوف بمثابة تحذير بانه على المرء الا يقدم دائما على مخاطرات الادب . هناك ١٠٠ شيطان ضد الشعر لا يريدون لك ان تدخل السماء (الى الله) .

سؤال : هل هذا هو السبب الذي يدفعك الى المواظبة على العمل الصحفي ؟

ماركيس : في السابق كنت أحب العمل كصحفي . الامر الذي لم أكن مرتاحا له هو شروط هذا العمل . وهذا شيء مغاير كليا . كان الاجر ضئيلا وكان يتوجب علي أن اكتب الكثير . وهذا سلبني وقتي . لكن الصحافة مهنة بديعة ، ويجب القول ان ذلك هو امر جد مفيد للكاتب الرواية . عندما يصبح المرء روائيا مشهورا يصبح معرضا لفقدان الاتصال بالواقع . والصحافة تعيد هذا الاتصال . انها بالنسبة لي عمل مكمل .

سؤال : غالبا ما يكون لدي انطباع بأنك ظاهريا تقلل من دور الكاتب .

ماركيس : هذا ما يقوله لي الجميع . على الاقل منذ ١٥ عاما ، منذ أن أصبحت مشهورا : بأنني الشاعر الوحيد الذي يملك حسا لما هو عملي . ربما كان هذا صحيحا ، لكن لدي هنا تفسيرا آخر : انني لا أؤمن كثيرا بالابراج . لكن مما لا شك فيه انه يمكن تقسيم البشر الى مجموعات . الناس الذين ولدوا في نفس التاريخ تقريبا ويتشابهون في كثير من الامور الخ . انني لا أؤمن كثيرا بذلك ، لكن هذا يبدو لي بمثابة جواب بسيط نسبيا على اسئلة كثيرة معقدة . كنت طوال فترة صباي في غاية البؤس ، وذلك لأن اتصالي بالواقع كان صعبا . كنت عاجزا عن اقامة هذا الاتصال . وكنت دائما تعسا . لم تكن متعة خالصة . كان برجي هو برج الحوت . لكنني كنت تحت تأثير برج الثور . ذات يوم قلت لنفسي

بوعي كلي : لا يمكن استمرار الامر هكذا . ليس في مقدوري ان اتابع الحياة كحوت ، والا اخضعني الواقع والحياة . يتوجب علي ان ابذل كل طاقتي واصبح ثورا . . .

سـؤال :ومتى قررت ذلك ؟

ماركيس : عندما بدات كتبي تلقى نجاحا . هنـا غيرت مجـرى ابراجي ، هنا غيرت حياتي . والان أشعر بأنني ثور اكثر ، مع قليـل من الحوت ، لكن ، لتسهيل الامر : لدي شيء من السـياسي ، ولدي شيء من الشـاعر .

سـؤال : ما هي شروط العمل التي تحتاجها ؟

ماركيس : سابقا كنت اكتب قصصي في ادارة الجريدة التي كنت اعمل لديها . كان المكان ضيقا . فتعلمت ان اكتب بطريقة مغايرة للكتّاب الذين يحتاجون الى هدوء : انني اكتب والباب مفتوح ، واستخدم في كتبي كل ما يدخل من النافذة ، الضوضاء ، الروائح ، الحياة من الخارج . ان ابنائي يدخلون الي متى يشاؤون ، وهذا لا يغضبني البتة . كنت اكتب قصة « في هذه القرية لا يوجد لصوص » . كان ذلك في كاراكاس ، كنت اكتب حكاية امراة تستيقظ وتقول شـيئا يخص الحلم اكثر مما يخص اليقظة ، وبحثت عن جملة . وهنا نقرت زوجتي مرسيدس التي كانت نائمة نقرة خفيفة ، فقالت لي : « حلمت أن نورا صنعت فطائرا بالذبدة » . فقلت : شكرا مرسيدس . هذا يعني ، اذا عزل المرء نفسه ، اذا أقـام المرء جدارا بين الكتابة والحياة ، فان اشياء كثيرة تضيع .

سـؤال : كتب احد النقاد مما يلفت النظر انك كاتب واثق مـن نفســه . . . .

ماركيس : اجل ، لكن هنا تماما تكمن الصعوبات في الكتابة . ليس هذا امرا سهلا . هذا يعني انه ليس عفويا . على المرء ان يعمـل كثيرا

للوصول الى ذلك . انني اريد ان اكون كاتبا يعطي انطباعا بانــه واثق . اذن يتوجب علي ان اعمل كثيرا جدا .

ســؤال : تبدو كتبك هدامة سياسيا . الا تخشى بأن تتعلم منها النظم الدكتاتورية ايضا ؟ ان تستخدم وسائل قمع اكثر مكرا ازاء الادب ؟

ماركيس : كلا ، هنا يمكن للمرء الاعتماد على نضج الجمهور . وانا اعتقد ان هذا النضج يكمن في ظروف معينة من قيام « تواطؤ » وثيق مع الكاتب . هذا يعني ان في مقدور الكاتب أن يجد دائما امكانيات للاتصال مع قرائه يجهلها الدكتاتور . ليس هذا دقيقا جدا ويختلف من بلد الـى آخر ويخضع الى تطور الظروف التي تتطلب دائما من الكاتب وســائل جديـدة . وهذا يتعلق على الارجح بـ « التواطؤ الادبي » .

ســؤال : هل تعتقد ان هذا « التواطؤ » بين الكاتب والقارىء هو في امريكا الجنوبية اقوى منه في أي مكان آخر ؟

ماركيس : انه من الصعب جدا ايجاد كاتب يميني في امريكا الجنوبية . ما عـدا استثناءات قليلة جدا فان كتاب أمريكـا اللاتينية هم كتاب يساريون . واظن أن نجاحهم له علاقة بهذا الموقف السياسي . وهذه هي مسالة تعاطف الجمهور مـع موقف يســاري اكثر مما تكون مســالة قيمة ادبيــة .

ســؤال : ماذا ينتظر القارىء في امريكا الجنوبية من كتبك ؟

ماركيس : من كتبي ينتظر القارىء في امريكا اللاتينية ان يتمكن من التعرف على نفسـه فيها ، هذا يعني انه يريد أن يفهم كيف هو ، مــا هو ، كيف يعيش ، وأين يقف . وانا ارى في هذه الحالة ان اهم مســاهمة يمكن ان يقدمها كتاب امريكا اللاتينية هي مساهمتهم لايجاد الهوية . ان البحث عن الهوية الذاتية هو نشاط فني ، حتى لو لم يكن القارىء يبحث عن الفن في الكتاب . والعمل الفني مقنعا اذا لم يكن فنيا . انك تدفعني

للتفكير بأمور لا يجوز لي التفكير بها . على الكاتب ان يكون بريئا ، ولا يجوز له التفكير بالاضرار التي يسببها .

ســؤال : هل ما تزال قريتك مسقطرأسك موجودة بالنسبة لك ؟

ماركيس : نعم ، انها موجودة . سأقول لك شيئا : طوال حياتي ، كل ليلة ، عندما احلم ، ثم أستيقظ في الصباح ، فقد كنت مرة اخـرى في هذا البيت . كل صباح ، بعد ان حلمت ، يتوضح لي انني حلمت مرة اخرى بهذا البيت . كل ما يحدث لي في الحياة ، وكل ما احلم به ، وكـل ما اعيشه ، هي احلام مشبعة بروح هذا البيت الذي لم يعد قائما . لقد تهدم لعدم وجود احد يقطن فيه . وقد بني امامه بيت آخر تسكن فيـه امراة عجوز تتصف بالصبر . كل يوم يأتي ناس ، طلاب ، نقاد ، الخ . وكأنهم يحجون . ان العجوز تعاملهم بكل صبر واناة . ثم ان الاولاد في القرية الذين لم يقرأوا كتبي طبعا ، يعرفون اليوم ما يبحث عنه الزوار : حديقة تصعد منها فتيات الى السماء مثلا ، انهم يبحثون عن مسـرح احداث قصصي . ان الاولاد ينظمون للزائرين جولات سياحية في القرية ، والاماكن التي يعرضونها عليهم خلقوها بأنفسهم . لقد حولوا الكتب الى واقع هو صورة عن واقع كتبي . وانا ارى هذا امرا بديعا . كنا ١٦ اخا واختا ، هذا يعني ا نوالدي كان لديه ١٦ طفلا . اثنان منهم قبل زواجه ، ١٢ من زواجه ، واثنان من خارج هذا الزواج . لقد اثارت امي فضيحة عندما علمت بذلك ، لكنها هدات بعد فترة من الزمن وضمت الجميع الى بيتها لانها قالت لا يجوز لدم أسرتي ان يدور في مكان ما في العالم . وانا كنت الوحيد الذي نشأ في منزل جدي الذي كان اثناء الحرب الاهليـة ضابطا برتبة عقيد .. لم يكن بطلا ، لكنه كان شخصية ما على النطاق المحلي لم يوافق على زواج امي من عامل التلغراف . كان سكان القرية محدودي التفكير جدا ، ولم يكن احد منهم يدري من اين جاء هذا العامل . لقد تزوجت امي اذ ن ضد ارادة جدي . واكثر من ذلك ضد ارادة جدتي ، التي كانت على الارجح تريد تزويج ابنتها زواجا ارستقراطيا نوعا ما . لقد تزوجا وولدتني امي في منزل والديها . وكدلالة على التصالح ارادت

جدتي أن ابقى لديها ، في حين غادرنا والدي مرة اخرى . كان هناك امر آخر لا يجوز للمرء ان ينساه . عندما كنت في الخامسة او السادسة من عمري كان ابي وامي يقيمان في نفس القرية لكن ليس في نفس البيت . واحيانا كنت ارسل الى امي لكي انام لديها . وفي كل مرة كان يجري ذلك لمعالجة امساك ما لدي . بزيت الخروع . والذكرى التي لدي عن البيت هي ذكرى مخيفة ، وذلك لانني لم اجلب الى هناك مرة سوى لاعطائي دواء مسهل . وعندما توفي جدي واضطرت جدتي للانتقال الى منزل والدي (احبهم كثيرا) ... : انهم اناس غير عاديين ؛ لكنني اعجز من ان افصل بينهم وبين زيت الخروع .

سؤال : كثيرا ما يرد جدك في كتبك ؟

ماركيس : لا ، لكن ليس بصورة او كموديل . بالاحرى لانه جانب مني . ان « العقيد » هو انا بالاحرى . كتبي . هذه هي حياتي . عندما اكتب مذكراتي لن ابدأ ذلك حسب التسلسل الزمني . سوف اكتب تاريخ كتبي . اذ انني في كتبي تاريخ حياتي وكتبته بالشيفرة . وسيكون من الجميل، فك رموزه وكتابة رواية عن الواقع وراء الواقع في كتبي . هذه هي المشكلة التي افكر بها حاليا اكثر ما افكر . هل رموز كل شيء وتقويض جميع الابنية التي اقامها النقاد .

سؤال : لماذا تخاف من الموت ؟

ماركيس : انني لا اخاف من الموت ، لان ذلك بالنسبة لي هو ظاهرة فيزيائية كليا . لكن ما يثير قلقي هو مرحلة الانتقال . بعد ذلك ، اعرف هذا ، يسود الظلام التام ، لكنني لن احس بذلك . ما يقلقني هو انني لن اعلم كيف ستسير الامور بعدي ، ماذا سيصيب ابنائي مثلا . هذا يحطم اعصابي . ان الموت يثير حنقي . انه جائر . ثم ان الموت سيكون التجربة

الوحيدة التي لن اتمكن من الكتابة عنها . ان ادبي يستفيد من سائر تجاربي الاخرى بطريقة او باخرى . لكن موتي ؟ انه الحدث الوحيد الذي لن اتمكن من كتابة قصة عنه . والموت يثير فضولي اكثر من اي حدث آخر ، وهو سيكون اهم حدث ، وربما أجمل حدث والاكثر تساميا بالنسبة لي . لكن ما من حيلة ، انني لن اصفه . وكذلك ما من احد آخر سيصفه . هذه كارثة شخصية بالنسبة لي . وسيكون ذلك بمثابة الفشل الكبير الوحيد في حياتي ككاتب .

* * *

هزيمة البطل الثوري في رواية وليد اخلاصي «بيت الخلد»

مالك صقور

تاتي رواية « بيت الخلد » بعد رواية « الحنظل الأليف » ، التي كرسها الكاتب ، للبحث عن الحرية ، وبعد « زهرة الصندل » ، ذات النفس الملحمي ، والتي ينتصر فيها وليد اخلاصي ، أو بالاحرى ، ابطاله على الموت لأول مرة ، ويسمو فيها الكاتب على الاحداث الدامية ـ المرعبة في مدينة حلب ، ليؤكد حب الوطن ، وخلوده ، وأن العزاء الوحيد هو محبة هذا الوطن .. الا انه هنا ، في « بيت الخلد » يعود الى سوداوية سابقة ، تحمل خطا عبثيا ـ رمزيا ، يصل روايته هذه ، بروايات له سابقة ، ك « أحضان السيدة الجميلة » و « أحزان الرماد » .

يخيل الي ، احيانا ، ان حب وليد اخلاصي للحيـاة ، وخوفه من الموت ، وكرهه له ، هما اللذان يجعلانه يدفع بأبطاله الى الموت ، وكأنه يفتدي نفسه منه، بتضحيته بأولئك المخلوقات التي يبتدعها . او هناك راي آخر ، يقول ، ان وليد اخلاصي ، يدفع أبطاله الى مآزق لامخرج منها ، فيتخلص منهم .. وهذا ما حدا ببعضهم ان يكيلوا التهم للكاتب ، بالذهنية تارة ، وبالوجودية طورا ، وبالبرجوازية حينا آخر ، ولكن هذا كله يفتقر الى براهين ودراسات منصفة ، بعيدة عن الآراء الصحفيـة السريعة ، والحساسيات الشخصية .

ونعود الى « بيت الخلد » ، وسقوط بطلها أكثم الحلبي ، الذي كرس حياته للنضال من أجل مبادىء انسانية سامية .

يقول نبيل سليمان في نقده لبعض أعمال الكاتب : « واخيرا فقـد تكون روايتا وليد اخلاصي (احضان السيدة الجميلة ، واحزان الرماد) عكستا بصدق اشراقه البرجوازية التي سورناها على الانهيار »(١) . واذا كانت رواية « المتألق » لعبد النبي حجازي ، تصور هزيمة (البرجوازي)، فان « بيت الخلد » ، تصور هزيمة المناضل الثوري (كفرد) ، وتخرج هزيمته من نطاق الفردية الى الجماعة ، وان كانت هذه الهزيمة ، قـد تبدت في الرواية ، كحالة فردية ، مثلت خيبة البطل ويأسه ، فان ذلك في الحياة العملية ، في الواقع المعاش ، يشكل ظاهرة اجتماعية . فحالة الخيبة ، التي أدت بأكثم الحلبي الى الهزيمة ، واضطرته الى الغاء العمل السياسي ، والنشاط الاجتماعي ، قد تسربت الى حياة الآخرين ، والى حيـاة الكثيرين من المناضلـين ، فاضطروا الى الانسحاب من مرسح الاحداث ، ومن العمل السياسي ، وذلك لا لتخلخل قناعاتهم بمبادئهم وعقيدتهم ، بل بسبب الاخطـاء المميتة التي ارتكبت بحقهم من قبـل مسؤوليهم وقياداتهم . ومن هنا ، فان حالة أكثم الحلبي ، وهي حالة فردية في الرواية ، لكنها ظاهرة جماعية في مجتمعنا . ومن هذه الزاوية ، تتبدى لنا اهمية « بيت الخلد » في بعدها الرمزي . حيث يدفن البطل

نفسه : فيرمز بذلك الى تلك الجماعة ، التي قبرت نفسها بيدها ، وما زالت تتشرذم ، وتتمزق ، وقد اختفى دورها من الشارع السياسي والنضال اليومي ..

☆ ☆ ☆

بدا (بطلنا) رومانتيكيا ، وطوباويا حالما ، في بعض الاحايين . فهو يحلم بالقضاء على الفقر ، يحلم بالحرية والعدالة ، وبمدينة يسودها النظام وروح العلم . ولكن الم تكن الثورة بحد ذاتها ، حلما في يوم من الايام ؟ ثم جاء اناس حققوا هذا الحلم . واكثم الحلبي ، هنا ، لم يسع لتحقيق هذه الاحلام ، من خلال الجماعة ــ الحزب ، رغم انتسابه الى حزب مرموق وفعال ــ في حينه ــ لكنه ، بدا اصلاحيا ، اكثر منه ثوريا . وفي هذا ، تجلت طوباويته حينا ، ورومانتيكيته حينا آخر .

ان تاريخ الفن الواقعي ، يمدنا بالامثلة الكثيرة والمتنوعة ، من نماذج المناضلين الثوريين . فمنذ الثورة الفرنسية ظهر الثوريون رومانتيكيون ، وبرز في الادب الروسي الثوريون الديمقراطيون بشكل جلي ، وكل كاتب عكس حالات ابطاله من وجهة نظره ، ورؤيته وعقيدته .

يقول بيتروف : « استطاع ادب الواقعية النقدية تجسيد سمات المناضلين الثوريين في الماضي ــ نقاءهم الاخلاقي ، سمو تطلعاتهم الانسانية ، اخلاصهم لقضية الكفاح من اجل الحرية ، كما صور فنيا ، الى جانب ذلك مصيرهم التراجيدي المرتبط بالاخفاقات التاريخية للحركة التحررية » . ومثل هذا الكلام ، ينطبق على (بطلنا) ، فلقد ابرز وليد اخلاصي الصفات الانسانية ، في طبع البطل وخصاله ، ونضالاته ، من اجل الفقراء والمصلحة العامة ، وفضحه للبيروقراطية . غير ان الكاتب اثار شفقتنا على البطل ، لا اعجابنا به . فالبطل الثوري ، هو الذي يثير الاعجاب والاكبار ، لا الشفقة . لقد جعلنا وليد اخلاصي نشفق على تلك

الشخصية ، التي احاطها بظروف قاهرة ، جعلت البطل ينهزم امامها ، ولم يصمد للنهاية .

« أن علاقة الانسان بالظروف المحيطة به ـ كما يقول بيتروف ـ هي علاقة متبادلة ذات حدين ، فالانسان يخلق او يسعى الى خلق الظروف الضرورية الملائمة . لكن يمكن ان تضع الحياة الانسان امام ظروف غير منسجمة مع شخصيته ، وما يتفرع عنها من رغبة وطموح ذاتي . هنا ، يكون المنطلق الاساسي لدى الكاتب الواقعي الحق في العادة ، التأثير المتبادل لكل من الشخصية والظروف ، لكن مع الدور الحاسم للعنصر الاخير . ولقد اشار انجلس في هذه النقطة . الى العنصر الاساسي في هذه المعادلة المتجلي في تبعية الشخصيات النموذجية ، للظروف النموذجية التي تحيط بها وتفرض عليها فعلا معينا »

انطلاقا مما تقدم ، نرى أن علاقة البطل في « بيت الخلد »بالظروف المحيطة به ،قدتأسست على تناقض وصراع بينه وبين المجتمع منذ الطفولة ، وحتى القبر ، وأن الظروف المحيطة به هي التي تواكبت وقهرته ؛ ومن ثم هزمته .

لقد بدت شخصية اكثم الحلبي ، مهزوزة ومحبطة ، على الرغم من صموده الفولاذي في السجن ، فلقد صمد اكثم الحلبي في السجن رغم كل انواع التعذيب الذي تعرض له ، والجلاد (نمر الكلسي) الذي اشرف على تعذيبه ، وتفنن فيه يقول : « هو ذا رجل أصلب من حجر الصوان ، وانقى من الذهب الصافي » . ويضيف الكلسي نفسه : « بالرغم من الوسائل الجلفه ، في محاولات يائسة ، لانتزاع الاعترافات عن العمل والرفاق . فقد امسك صديقي عن الوشاية او الاقرار بأي شيء يسيء الى اي انسان » . وصمود اكثم الحلبي في السجن ، يذكرنا ببطل نبيل سليمان في روايته « السجن » . فوهب يصمد للنهاية في السجن ، وعندما ابدى بطولة خارقة ، ارادوا أن ينتهكوا جسده ، ليذلوه بشرفه ورجولته : « اراد وهب صادقا أن يدفع الوحش لكن العجز غلبه .. لم يستطع ان

ياتي بحركة .. تألم واحس انه يعامل كحيوان .. وراى بينه وبين العالم ثقب ابرة فقط ، ولا مناص له من ان يلج ... ولج وتمزق »(٢) ..

وهنا ، نرى اكثم الحلبي يصمد للنهاية ، ويخرج من السجن قويا رغم هزال جسمه ، الا ان هزات عنيفة عصفت بروحه ومثله ، فجعلته يستسلم . ويبدو انهـا كانت اعنف من عذابات السجن ، اذ دمرتـه من الداخـل ..

* * *

لقد وضعنا عنوانا كبيرا هو « السقوط » لدراستنا هذه ، وهنا علينا ان نحدد السقوط . سقوط البطل : في راينا ، ان اكثم الحلبي ، قد سقط في ثلاثة مواقف ، وذلك (بعد خروجه من السجن) : الموقف الاول ـ لجوئه الى الشيخ ياسين . وسقوطه الثاني ـ نجاحه في الانتقام والتحريق . وفي الموقف الثالث والاخير ، عندما دفن نفسه حيا . ومع هذا ، سنحاول ايجاد المبررات له كي لا نظلمه ، ولكي نكون عادلين في الحكم عليه . او بالاحرى ، حتى نفهم هـذه الشخصية جيـدا ، لا بد من الرجوع الى الرواية ، لدراسة هذه الشخصية في مراحـل تطورها ، وتكون الوعي لديها من البداية ، وحتى لحظة الاختفاء ..

رصد الكاتب حياة بطله ، من البداية حتى النهاية . ففي القرية قدم لنا (الطفل) واعيا . لا بسيطا ساذجا ، رغم فقره ، وصغر سنه .. فبعد ان تنتهي القرية من دفن جده ، نسمعه يرد على المختار بقوله : « ليرحم الله الطيبين الفقراء » ، « ليرحم الله الذين لا محبين لهم » . وعندما يامره المختار بالذهاب الى الزريبة ، يجيبه الطفل « تعالوا نتقاسم الطعام » . وعندما يحرم المختار ، على اولاد القرية ان يلعبوا معه يفكر الطفل ـ اليتيم المنبوذ بحرق بيادر القرية . ان اجوبة الطفل ، وتفكيره بالانتقام بحرق البيادر . ينمان عن وعيه وجراته ، وعن ان الطفل اكبر من سنه ، ولا يدلان ، على انه ذلك المنبوذ المسحوق .. كذلك ، عندما وصل المدينة ، بدا ذكيا .

عندما عرف خداع ابن المدينة له ، فهرب من بين يدي رجـل اراد ان يفترسه . وما دمنا ، هنا ، نستعرض شيئا عن الصبي اليتيم في القرية ، لا بد لنا ، من الاشارة ، الى ان ثمة مبالغة فنية قد وقع فيها الكاتب : تصويره للطفل (الذكي والواعي) من جهة ، والى قسوة اهالي القرية على الطفل اليتيم من جهة ثانية ، دون سبب يذكر . فانه من غير المعقول ، ان تنتفي الرحمة ، كل الرحمة ، من قلوب فلاحي القرية ، نساء ورجالا ، وان ينبذ من قبل الجميع . والكاتب لا يبرر ذلك . ففي رواية « الوباء » لهاني الراهب ، مثلا ، ينبذ اولاد الزانية من قبل القرية ، وذلك ، لانهم اولاد زانية . فيعيشون التشرد ، ومع ذلك ، يجدون من يعطف عليهم بكسرة خبز ، وباطمار بالية . بينما في « بيت الخلد » لا نجد ذلك ، وفي اعتقادي ، ان سبب هذه المبالغة ، هي ان الكاتب لم يعش في الريف ، ولا يعرف عادات اهالي القرى ، هذا من ناحية ، اما من ناحية ثانية ، فلكي يعطي الصبي ، المبرر الكافي كي يهرب الى المدينة .

وهكذا ، يقدم الكاتب ، لنا بطله ، طفلا واعيا ، ولديه الاستعداد ، كل الاستعداد للتطور . فها هو يفضل السرقة على التسول ، ويدخـل الخان ، ويتعلم حرفة (الاسكافي) ، ويبدأ بترقيع الاحذية ، غير انه لا يقتنع بهذه المهنة ، فيبدأ بتثقيف ذاته ، وتبدأ مرحلة الوعي ، وتكوين الذات ... ويأتي الشيخ بيير ، ليغير مجرى حياته . . وفعلا ، ينتقل من صف البروليتاريا الرثة ، الى صفوف المثقفين الثوريين . ويبدأ بطلنا ، رحلة الكفاح مع رفاق ، بدا عنهم غريبا ، هو واستاذه ورفيقه الشيخ بيير . مع انه يقول في اوراقه : « وها هو الامي يتعلم ويصبح عضوا فعالا في الحزب الذي يحلم بتغيير كل شيء من اجل الافضل » . الآن اكثـم الحلبي ، يعيش في صراع دائم منذ حداثته . عاش الصراع في القرية ، بوعي طفولي مع المختار ورجال القرية الذين لم يشفقوا عليه ولم يرافوا بحاله . وعاش غريبا في الخان ، رغم التصاقه الطبقي بمن حوله ، وعاش الغربة بين رفاقه : « كان موقف قمر شبيها في كثير من الاحايين ، بعناد

بعض من رفاق النضال السري في مواقفهم من المعرفة والثقافة . كانوا يرفضون أي شيء ليس له علاقة بالتعاليم الحزبية المحددة » . كما عاش الغربة مع زوجة لم تفهمه ، ولم تحاول ذلك . ان الزوجة ، في هذه الحال، تلعب اكبر الادوار في حياة الرجال . وكانت (سراب) هي البديلة في الرواية ، ولكنها لم تستطع انقاذه ، من دماره النفسي ، وحالة القنوط المدمره .

ان الابطال في الروايات المشابهة ، يستمدون بطولاتهم وصمودهم من التمسك الشديد بمبادئهم ، وباحزابهم ، ورفاقهم ، من اهلهم ، وذويهم، ومن الامل بالانتصار على الجلادين ، ومن ان المستقبل لهم . والحالة الشبيهة بحالة بطلنا هي حالة بطل « تلك الرائحة » لصنع الله ابراهيم . فبطل رواية « تلك الرائحة » يجد نفسه مأزوما بعد السجن ، ويعيش حالة حصار عنيفة ؛ ويشعر انه مجرد فار مطارد . اما في رواية « شرق المتوسط » لعبد الرحمن منيف فنرى البطل (رجب اسماعيل) يستمد صموده من صمود امه التي تريد لابنها ان يبقى بطلا ، رجلا : « اسمع يارجب انا امك وأنت قطعة من لحمي . وليس في هذه الدنيا من يعزك مثلي . ماذا تقول للناس اذا اعترفت وخرجت ؟ اذا اعترفت سيقولون خائنا ولا تستطيع ان تنظر في وجه احد » . هذه امرأة ، وأم ، تشد من عضد ابنها كي يصمد في السجن ، ولكي لايعترف . وفي « بيت الخلد » نجد المرأة ــ الزوجة ، ضد زوجها ، لا بل تشمت به : « انا لم ادخلك السجن ، تلك الكتب هي التي فعلت » . وتقول ايضا : « ماذا افادك جماعتك ؟ سجن وفقر كما ترى ، واما رفاقك فيعلمون من أين تؤكل الكتف » . اذن ، لامجال للمقارنة بين ام رجب ــ المراة ، وبين قمر ــ الزوجة . فالام تمد ابنها بالقوة ، فيما تساهم قمر في احباط زوجها .

ان أكثم الحلبي ، يعيش الخواء العاطفي ، منذ طفولته . فيحرم من الاب والام ، وبعدها يموت جده . وبهذا ، يكون قد حرم من حنان الام ورعاية الاب . ويكبر . . ويتزوج فلا يستعيض عن ذلك بعلاقته مع

زوجته . وقد كان لزوجته ، أن تلعب هذا الدور الهام في حياته ، لكنها لم تفعل ، ومن هنا تشكلت واكتملت لديه حالة الخواء العاطفي ، والحنان الانثوي ، في البداية ـ الام ، وفي النهاية ـ الزوجة .

وهكذا ، يخرج اكثم من السجن ، فلا يجد السند . ولا يتبرعم الامل في نفسه ، من اجل مستقبل افضل ، لاعلى الصعيد الفردي (بيته) ،ولا على الصعيد الجماعي (الحزب) . فالشيخ بيير معلمه ورفيقه وصديقه قد استشهد تحت التعذيب ، على ايدي الجلادين ، وهاهم الرفاق قد طردوه بلا سبب ، وهذه هي زوجته ، لاتفهمه ولاتحبه ، لابل خانته مع الجلاد ، ماذا بقي له اذن ؟!

ان طرد المناضل الحزبي من الحزب ، يعني له الموت ، واحيانا ،يكون الموت أسهل عنده من الطرد ، انه يعني بالنسبة اليه خروج السمكة من الماء . اذن ، هناك ثلاثة عوامل اساسية وكبيرة ، زعزعت ثقة اكثم الحلبي بالناس وبنفسه ، وهي : استشهاد صديقه ورفيقه الشيخ بيير ، وطرده من الحزب ، وخيانة زوجته . فلو استشهد الشيخ بيير ، وبقي الرفاق من حوله ، يحتضونه ، ويبثون الثقة في نفسه والحزب . لما آل هذا المآل ، ولو طرد من الحزب ، وبقيت له الزوجة على الاقل ، وهي العزاء الاخير ، لو بقي من يشاركه عذابه وآلامه . ولكن لم يبق له احد . فانهار، داخليا ، وانقاد مع محاسب الجريدة التي يعمل فيها الى الشيخ ، وهذا شكل سقوطه الاول : فأمام الشيخ هتف اكثم بضعف : « لقد ضعت . فقدت يقيني بنفسي وبالناس وبالمبادىء » . « ويقينك بالله يارجل ! »

« فلم يجب اكثم . ظل مصغيا يمسح البساط الخشن بعصبية كفه» .

علق الشيخ على ذكرياته مع اكثم الحلبي بقوله :

« الرجل بدا وكانه لايؤمن بقدرة الله على انقاذه من المحنة . اعوذ بالله من شر الوسواس الخناس » ثم اعقب وقد ظهر الرضى على وجهه فتالق :

« ولكنني علمت ان الرجل المسكين يبحث عن الحقيقة . وهل هناك حقيقة غير الله عز وجل » .

وكان اكثم مهزوما ومستضعفا ، فقال له الشيخ : « توجه اليه بكليتك » .

إذاك صاح المهزوم :

« لا ارى وجهه . اين هو .. اين هو ؟ »

وينهار اكثم الحلبي نهائيا ، فيبكي ، ويهتف :

« لنقلم الاظافر التي خدشت الجلد والعظم والروح » .

هذه صورة اكثم الحلبي ، بعد المحن التي عصفت بروحه ، ونحن نعلم ان الفريق يتعلق بقشة . وذهابه الى الشيخ بعد أن هزم داخليا ، ما هو الا تلك القشة وهو في اللجة . وبلجوئه الى الشيخ ـ كما قلنا ـ يتشكل سقوطه الاول . لان عقيدته ومبادئه وايدلوجيته ، لاتسمح له بالركون الى الغيبيات ، والعودة الى الشعوذات . وهو قد اتخذ الاشتراكية نهجا ، ومن هنا كان سقوطه هذا سقوطا لامبرر له .

اما سقوطه الثاني ، فيمكن ان نلتمس له بعض المبررات ، ولو انها غير مقنعة نهائيا . فبالمصادفة ، يلتقي اكثم بالجلاد الذي يحقد عليه . الجلاد سابقا ، السمسار حاليا ، ذاك الجلاد الذي لم يستطع ان يذل اكثم في السجن ، فجاء الآن ، وباسلوب رخيص وسافل ليدنس كرامته ويذله وكان له ما أراد : لان زوجة اكثم استسلمت لمغريات ذلك الوحش . وقد اكتشف اكثم هذا ، حينما كتب في اوراقه : « اكتشفت منذ قليل ان الرجل المجدور يتسلل ببثوره الى اعماق كرامتي ... » .

وتأتي اللحظة الموانية ليحرق كل شيء .. وان بدا هذا انتقاما لكرامته ، فان الانتقام يحمل اكثر من بعد . قد يقال ، ان الثوري ـ الماركسي لاينصرف بهذا الشكل ، الا اننا ، كنا قد عرجنا على تخلخل

ماركسيته وضعفه عندما لجأ الى الشيخ .. وقد يتساءل القارىء ، هل يمكن ان يصادق الانسان خصمه اللدود وعدوه وجلاده بهذه البساطة. ان أكثم نفسه يتساءل : « اعجوبتان مرتا في حياتي ولم افهم لهما سببا معقولا ، او تبريرا منطقيا ، فصلي المفاجيء من الحزب الذي كرست له كل وجودي وارتبطت به عقلا وعاطفة فأنكرني ، وجلوسي الى مائدة نمر الكلسي اشرب العرق في صحته فيغمرني بالمودة . ويقول الرجل فجأة وهو يرفع الكأس في صحتي : « نخبك ايها الشجاع الصلب » .

ان نشوء علاقات ودية وصداقة بين المعتقلين والمناضلين وبين السجانين ، ظاهرة تكررت في ادب السجون . ولكن تلك العلاقة ، كانت تنشأ في السجن ـ وتكشف عن الطبقية التي تجمع الطرفين . ولكن في « بيت الخلد » ، اتت متأخرة ، بعد الخروج من السجن ، وجاءت تلك العلاقة متأخرة ، كي يهين المناضل ويذله . وبعد اكتشاف اكثم الحلبي علاقة الجلاد بزوجته ، انتقم ذلك الانتقام المريع ، الذي كان رد فعل عنيف ، ولكن هل يستطيع انسان ما ، ان يلوم اكثم لانه ثار لكرامته ، وشرفه ؛ وشفى غليله بقتله لذاك الجلاد ، الذي لم يستطيع النيل من كرامته في السجن ، فلاحقه الى خارجه ، ومازال حتى دنس شرفه . وتأتي اللحظة الحاسمة ، فينتقم ، ولكن بقي انتقامه فرديا ، ومادام الانتقام فرديا ، فان مسألة الظلم والتعسف والجلادين لم تحل ، وهذا ينافي الماركسية ، والماركسية لاتقربه . ا ن بذور الانتقام ، تكونت في نفس اكثم الحلبي ، منذ كان صغيرا ، فها هو ذا يخرج من القرية حالما بالعودة اليها ، حاملا بندقية ليقتل المختار ، وكل من اساء اليه وساهم في ظلمه وتشرده ، ويكبر الحقد في نفسه ، ويكمن في اللاشعور . مع ان هذا لاينكشف خلال حياته في الرواية . انه من وجهة النظر الاخلاقية ، لايعتبر مجرما ، فهو رجل يدافع عن شرفه ، الا ان انتقامه ، جاء انتقاما للشيخ بيير الذي صفي جسديا على يدي الجلاد نفسه . وقتله لزوجته ليس غيرة ؛ بل حنقا وحقدا على ماض تافه قضاه معها دون ان يفهما بعضهما بعضا . ومن هنا ، يأتي تبريرنا لسقوطه الثاني . ان هذا الانتقام يأتي

منطقيا في الرواية ، وليس مفتعلا ، فانظروا الى انسان يضبط زوجتـه بالجرم المشهود مع عدوله ، ويتاح لـه أن ينتقم منهما . فما عساه ان يفعل . هل يمكن ان يعاملهما على الطريقة (التولستويه) ؟! .

☆ ☆ ☆

قسم الكاتب روايته الى عشرة اقسام ، وجعل لكل قسم عنوانا يشي بمضمونه : فالقسم الاول «مقالات . . مقالات» يعتبر بمثابة مدخل للرواية، ومقدمة لها . اذ لخص الكاتب الرواية بكاملها في هذا القسم ، واوكل مهمة (القص) لراو مجهول ، لم يعرفنا بنفسه ، فقد طلع علينا في القسم الاول ، وفي تعقيبه النهائي ، وقد بدا الراوي عليما خبيرا بكل أمور البطل وخفاياه . يحكي لنا الرواي ، عن انسان مات ، قبل ان تتحقق احلامـه وطموحاته ، من خلال نشاطه الصحافي ، ويعرض افكار ذاك الـرجـل وتطلعاته ، ومواقفه من الحياة والناس والمجتمع . وما ان ينهي الراوي حديثه عن الرجل صاحب الحظ العاثر ، حتى يسلم دفـة (القص) الى صديقة البطل (سراب) وهي مدرسة للفلسفة ، وتقوم سراب بدورهـا ، لتضع امامنا أوراق الكتم الحلبي ، وفي هذه الاوراق ــ المذكرات يتشكل هيكل الرواية . ان دور (الراوي) هنـا ، ودور (سراب) والتـسلسل الزمني في الرواية ، يذكرنا براية ليرمنتوف « بطل هذا الزمان » . فالكاتب يستخدم تكنيكا مشابها ، لما استخدمه ليرمنتوف . وهو وقـوع المذكرات بيد المؤلف او الراوي ، مع التباعد بين مضموني الروايتين . ففي روايـة « بطل هذا الزمان » تقع مذاكرات « بيتشوريـن » مصادفة بيد الراوي، فينشرها بعد موت صاحب المذاكرات . ولكنه يعلل السبب ، الـذي دفعه لنشر مذكرات انسان لا يعرفه فيقول : « ويجب الان ان أشـرح قليلا الاسـباب التي حفزتني الى أن انشر في الناس أسرارا شخصية لرجل لم اعرفه ابدا . لوكنت صديق ذلك الرجل ، لفهم كل انسان مايتصف به الصديق الحقيقي من افشاء غادر للاسرار ولكنني لم ار الرجل الا مرة واحدة في حياتي ، لقد رأيته على قارعة الطريق . فـانا اذن ، لايمكن ان اكن له ذلك الكره الذي لايفسر ، ذلـك الكره الذي يتقنـع بقنـاع

الصداقة .. فالرغبة في نفع الناس هي وحدها التي دفعتني اذن الى نشر هذه الاجزاء من يوميات القت بها الصدفة بين يدي .. ولقد غيّرت جميع الاسماء » ... اما في « بيت الخلد » فان الفتاة التي نشرت الاوراق المذكرات ، هي صديقة البطل ، وتعرفه جيدا ، ودوافعها بنشر أوراق البطل هي تقريبا ، نفس دوافع ورغبة الراوي في (بطل هذا الزمان) فنراها تقول : « كي لا اقع في فخ العواطف او الميول الشخصية في تصوير ماحدث ، فاني ساوضح عن هدفي الحقيقي من كتابة هذه الاوراق دون موأربة او حذلقه ، فانا ارمي قبل كل شيء ، ان احفظ ذكرى انسان حقيقي قبل ان تبهت الذكرى ، وينشط النسيان ، كما واني اتمنى من الاخرين الذين لم يقابلوه او يعرفوه أو يسمعوا عنه شيئا ، اريدهم ان ينصرفوا اليه ، احلم بأن يدرك كل الناس من هو اكثم الحلبي لاكشخص بل كقيمة . ان يحبوه ويتعلموا اشياء كثيرة منه ، حب الآخرين مثلا .. الصدق .. الإخلاص للمبدأ .. » .

وان كان « بطل هذا الزمان » ، (صورة تضم رذائل جيلنا كله)، كما يعبر الشاعر الكبير ليرمنتوف ، فان بطل « بيت الخلد » لم يضم فضائل عصرنا ، وما من انسان يستطيع ان يضم الفضائل كلها ، ولكن بما أننا اطلقنا على اكثم الحلبي لقب (الثوري) ، فلا شك ، انه يتحلى بالكثير من صفات الفضيلة ، ومالنا ، لنطلق عليه لقب (الثوري) لو بقي مناضلا من خلال مقالات ينشرها بالصحف ، فان تلك المقالات لا يتعدى ان يكون صاحبها اصلاحيا لاثوريا ـ كما اسلفنا ـ الا ان انتسابه الى حزب ثوري، ومشاركته الفعالة في نشاطات هذا الحزب ، واعتقاله، وسجنه ، وصموده هو الذي جعلنا نطلق عليه هذا اللقب العظيم .

لقد اراد وليد اخلاصي ، ان يتفادى خطأ ، هو ان لايقدم (بطله) فردا، يعمل في الصحافة ، ويبغي من عمله ، ونضاله تغيير الواقع او المجتمع . ولما كان وليد يعي تماما ، ان دور الفرد في هذا المجال ضعيف ، جعل بطله ينتسب لحزب ثوري ، له جماهيرته الواسعة في الاربعينات ومطلع الخمسينات ، ويستطيع ان يحرك الشارع متى شاء .. الا انه لم

يستطع أن يقدم صورة ذلك الحزب جلية أو تلك الجماعة الثورية ، من خلال البطل ، بل تركه يتخبط وحيدا . مع أنه طمح لفضح الدوغما الحزبية الضيقة ، وتجلى هذا ، في طرد (البطل) التعسفي من الحزب الذي كرس له حياته ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية تعلق البطل بشخص (الشيخ بيير) . وعلاقة البطل بالشيخ بيير هي المرحلة التالية . لنمو شخصية البطل ، وتكون الوعي الايديولوجي لديه ، بعد مرحلة التثقيف الذاتي في الخان .

ان علاقة البطل بالشيخ بيير ، تبدو علاقة طبيعية وضرورية في البداية ، فهي علاقة (العضو الحزبي) بالرفيق المسؤول ، الا انها جرت وتجر عواقب وخيمة وسيئة في النهاية ، وهو أن الحزب كله كان هو الشيخ بيير ، فبعد ان فقد اكثم الشيخ بيير ، فقد كل شيء وهنا ، لابد من الاشارة الى ان الشيخ بيير ذلك البطل الحقيقي ، ذلك المناضل الصلب، قد أحس بخبرته الحزبية وتجربته مع الرفاق بالخطر على أكثم منهم ، فيقول له : « انت حزبي ومناضل جيد ، لذا انا اخاف عليك يارفيقي » . وها هي ذي نبوءة الشيخ بيير قد تحققت . قلنا : ان مثل هذه العلاقة تكون ضرورية وطبيعية في البداية ، اذا بقي الامر ، والعلاقة مع انسان مناضل مخلص كالشيخ بيير ، اما اذا كانت مع غير هذه النوعية ، فانها تؤدي بالنهاية الى عبادة الفرد . وهذا ماحدث في كثير من الحركات الثورية ، والتنظيمات السياسية . وكان ذلك سبب من اسباب اخفاقها وفشلها . واكثم الحلبي ، في الرواية بدا متعلقا بالشيخ بيير اكثر من تعلقه بالحزب . رغم اخلاصه وتفانيه لقضية الحزب . فمن خلال مذكراته بدا الشيخ بيير ، انه الاول والاخير عنده . .

☆ ☆ ☆

بعد أن استعرضنا ، رحلة أكثم الحلبي ، في الرواية ، يقودنا مجمل ماقلناه ، الى مقولة « تشر نيشيفسكي » : « هل يجب تصوير الواقع كما هو ، أم يجب تصويره كما يجب أن يكون ؟ » . فاذا كان الواجب تصور الواقع كما هو ، فيا هو ذا اكثم الحلبي ، كما كان في الواقع (الروائي)

علما ، انه في الواقع المعاش لايختلف عنه كثيرا ، وها هي ذي حياته كلها ، من البداية وحتى النهاية ، خذوا منها ما تشاؤون وارفضوا ما تشاؤون . .
واما اذا كان الواجب تصوير الواقع كما يجب ان يكون ، فلا نعتقد ان ذلك ، كان طموح الكاتب في هذه الرواية ، ولانعتقد ايضا ، ان ذلك بمقدوره ، على الاقل ، في هذه المرحلة والتي لم يستطع تجاوزها الا في « زهرة الصندل » .

ان تصوير الواقع ، كما يجب ان يكون ، هو سمة من سمات ادب الواقعية الاشتراكية . اما هنا ، في هذه الرواية . فنجد مزجا بين الواقعية النقدية والواقعية الجديدة . رغم ان الكاتب قد استخدم النهاية ــ الفانتازيا . وقد تمثلت الفانتازيا في القبر ــ البيت ، الذي تخيله الكاتب ، والذي يعجز عن تنفيذه مهندس معماري بارع . هذا القبر ــ البيت ، (الذي هو بيت الخلد) يحمل اكثر من تأويل وتفسير : « كان سطح المبنى كسطح علبة كشف نصفها ، والنصف الثاني قد غطي بلوح حجري . . . ثم سمعنا صوت انزلاق ، والنصف المغلق من سطح البناء يتحرك ببطء يرافقه صرير الحجر وكأنه يحتك بذرات الرمل . وما هي الا لحظات حتى كان السطح مغلقا وكتيما كصندوق لا منذ له » .

اما فيما يخص حيوان الخلد ، فانه من المعروف ، ان هذا الحيوان يحفر هنا ، ليخرج من هناك ، من خلال انفاق ترابية على قد جسمه. والتأويل هنا ، ان اكثم الحلبي ، الذي استطاع « ليتامل » ، بعد رحلة العذاب . يمكن ان يتابع رحلته ، بعد ان اختفى ، وتأويل آخر ، انه قد قبر نفسه ، احتجاجا على كل ماجرى ، وكل مايجري من ظلم وتعسف . .
المهم ، انه في نهاية الرواية ، لم يمت تلك الميتة التراجيدية المعروفة ، مع ان حياته كلها تراجيديا ، ولكنه يبقى سوتا « فانتازياويا » ، مع انه اتخذ شكل الانتحار . .

ثمة امر مهم ، لم نشر بعد اليه ، وهو ان اكثم الحلبي ، الذي انتقل من صف البروليتاريا الرثة الى صف المثقفين الثوريين ، يمثل شريحة

واسعة من المثقفين الثوريين العرب . وبالتالي ، فانه يمثل حالة التناقض الهائل ، حالة الشرخ الكبير في شخصية المثقف العربي . الذي لم ينل ما يصبو اليه ، ولم تتحقق طموحاته . لان هناك اسباب هامة وكثيرة تقف دون ذلك . ويمكن تلخيص اخفاقات المثقفين العرب في مساعيهم ونضالاتهم ، بما يلي :

أولا ـ ان ارضيه المثقفين العرب ليست واحدة ، في غرب الوطن وشرقه . وثانيا ـ ان قسما كبيرا منهم لم يستطيعوا تطبيق النظرية على الواقع ، ومنهم من لم يستوعبها بتاتا ، ثالثا ـ تناقض القول مع الفعل . رابعا ـ سطوة القمع التي يواجهها المثقف ، وخاصة ، المثقف الثوري . هذه العوامل ، وعوامل ذاتية اخرى ، هي التي احدثت هذا الشرخ في نفس وروح اكثم الحلبي والكثيرين من رفاقه .

ان رواية « بيت الخلد » ، هي الرواية السادسة ، من بين خمس وعشرين عملا فنيا (مجموعة قصص ، مسرحية ، رواية) .

ونستطيع ان نقول ، ان الكاتب بعد رحلته الابداعية هذه ، قد اصبح متمكنا من عدته وادواته الفنية ، واللغة غدت مطواعة لريشته ، ويمكن القول ايضا ، انه لم يجهد نفسه في البحث عن الشكل ، فالموضوع ، عند وليد اخلاصي ، هو الذي يختار شكله ، والجدير بالذكر ايضا ، أن الكاتب قد حقق بتنوع السرد المتعة الروائية ، والانشداد الى القراءة ، باستخدامه الحبكة البوليسية ، والمماطلة في كشف الحقيقة .

ومع أن الكاتب ، لم يخف تعاطفه مع البطل ، الا ان وصفه له في بعض الاحايين ، قد جاء ساخرا بكاريكاتورية دنكوشوتيه . ولقد كانت سخريته خفيفة ، وليست ذلك الهجاء اللاذع . وتبدت في القسم الاول ، خاصة ، عندما استعرض (الراوي) مواضيع اكثم الحلبي الصحافية وتجلى ذلك في فهم العرب (للديمقراطية) ، وان كلمة (البندورة) انفع ، لانها صالحة لمعظم انواع الطعام ، واما الديمقراطية فهي كلمة يونانية ، وعسيرة الهضم ، اما كاريكاتوريته فقد تجلت في وصف البطل الخارجي ، هزاله ، نظارته ، ملابسه ، الخ ..

بقي ان نشير الى عيب واحد في الرواية ، وهو ان الكاتب ، باسلوبه السردي المتنوع ، قد حرم الرواية من الحدث ، فطفت الشخصية على الحدث ، وكانت الرواية ـ رواية شخصيات .

اذ تمحورت الاقسام العشرة حول شخصية البطل (أكثم الحلبي) ، واما بقية الشخوص ، رغم اهميتها ، فكانت ثانوية ، وقد قابل فيما بينها. اكثم الحلبي يمثل الخير المطلق ، والكلسي يمثل الشر كل الشر كل الشر . والعنصر النسائي تمثل في قمر ـ المرأة الغبية ، البليدة ، الخائنة ، الساقطة . وسراب الصديقة الوفية ، المرهفة الاحساس ، والتي جعلها الكاتب مفتاحا لطرح مقولاته الفلسفية والتأملية .

ولكن لا يمكن ان يمر القارىء بسرعة على (الشيخ بيير) ، ذلك المناضل الحقيقي ، الذي اجاد الكاتب في وصفه ، وهو يستحق هذا الوصف ، انه العاشق الصوفي للقضية وللحزب ، وللناس .

واخيرا ، نأمل من الكاتب أن يعيد لنا أكثم الحلبي الذي اختفى ، بعيده « سيزيفا » عربيا حقيقيا . لان المرحلة الراهنة تتطلب الصبر والارادة القوية ، والمناضلين الصلبين . لا الانهزاميين . وتبقى « بيت الخلد » شاهدا حيا على مرحلة مضنية ،ومكدرة في تاريخ العرب الحديث.

هوامش :

١ ـ سعيد رجو ـ هو الشاعر السوري المعروف . اصدر حتى الان ، أكثر من خمس مجموعات شعرية ، منها « هذا العذاب الشهي » و « شيء غير الخبز » و « اعياد الحزن الابيض » و « اضمومة نار » .

٢ ـ انظر نبيل سليمان . الرواية السورية . دمشق ـ وزارة الثقافة ص ـ ٢٩١ ـ

٣ ـ انظر نبيل سليمان . رواية « السجن » ، دار الفارابي ـ ص ـ ٤٠ ـ

بَــــين
« الأزرق والأحــمر »

خليـل المـوسى

« الازرق والاحمر »(١) مجموعة قصائد تقترب من حالة مناخية متشابهة ، وتنطلق من الواقع العربي في ثمانينات هذ القرن ، وتتسم بشفافية الرمز وعمق التجربة وصدق الرؤى ، وتدور بين ثنائيات متضادة، الجفاف والخصب ، العقم والولادة ، الموت والحياة ، الواقع والحلم ، الحاضر والماضي ، ولا يبتعد الشاعر برؤاه عن التجربة ، وانما هما في تلاحم وتفاعل في مدار ابتلاع الجفاف للخصب والعقم للولادة والواقع الحلم الجميل والموت للحياة والاحمر للازرق ، ويمثل ذلك التخلف الذي نعيشه والتجزئة الاجتماعية والاقتصاد والايديولوجية . ورؤى الشاعر حضارية شبيهة برؤى الحاوي ، فقد مل وسئم الانتظار بعد ان اخذ الواقع يكذب الحلم المتجدد وتوالت النكبات التي هزت الذات وافرغت منها الصبر والاحلام ، وبعد أن ازداد طوفان الاحمر (رمز الدم الحقيم) وابتلع الازرق (رمز الحلم)، واستطاعت الاصابع الخفية المالوفة ان تنجح في تدمير صورة الحلم الجميل الذي عاشه جيلنا المعاصر .

١ ـ مجموعة شعرية لمحمد عمران ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ١٩٨٤ م

وتتساقط في « الظلال » ، وهي حوارية قصيرة بين عاشقين قديمين ، الهموم الى ان يغدو الوقت رمادا والنبيذ ميتا ، ويطوي الوجه اراجيح الطفولة والعشق ، اما العشاق فانهم :

(يجيئون ، ظلين ، ظلين ،
يدفن في الدم تبغ كثير
ودن من الكلمات ،
سلال من الاعين البارده ، (ص ٨)

ويبدأ الجفاف يسيطر شيئا فشيئا على ما تبقى من حياة في الجذور، فالشجر عاقر والشرفات مغلقة والحقول يابسة ، وهذا ما يؤدي الى الضياع ، بعد أن فقدت معالم الخصب والحب ، ولا ينسى الشاعر ان يستفيد من صورة « الرعد العقيم » و « خراب أصل الحياة » في قصيدة « الارض الخراب »(٢) حين يقول :

ادخل في الشجر العاقر
الشرفات التي انغلقت
في الحقول التي يبست
في الغيوم التي اعقمت
في السماء التي انطفأت
في الظلال (ص ٩)

ويجلس العاشقان ، ولكنهما لا يجدان شيئا يقولانه ، فالكلمات انطفأت والشرفات اغلقت والسماء مطفأة ، وبأي لسان ينطلقان مادام وجهاهما قد آلا الى ما يقوله الشاعر :

---

٢ - انظر الابيات : ١٩ - ٢٠ و ٥٦ و ٦٢ و ٦٣ و ٢٢٨ و ٢٣٨ و ٣٢٢٩ من قصيدة « الارض الخراب » لاليوت .

كــان وجهــك يمحــى
ووجهي يمحى (ص ٩)

ولهذا كان لابد من ان تنتهي « الظلال » بفتور العلاقات بين العاشقين، وباليأس الذي فرضه الواقع والتجربة من مستقبلهما ، فيمشيان الى باب المقهى ويغيبان في الطرق المتقاطعة والزمن المتقاطع . والقصيدة ذات طابع اليوتي ، وهي تستفيد من قريب او بعيد من « الارض الخراب » . ولكنها لا تبتعد عن الواقع العربي في ثمانينات هذا القرن .

وتظل تجربة هذه القصيدة المفتاح جلية في القصائد الاخرى ، على الرغم من ان لكل منها خصوصيتها واسلوبها وطريقة تعبيرها ، مما قد يجعل هذه القصائد انغاما متنوعة ذات لحن متشابه ، ففي « الرحلة » يستعير الشاعر تجربة امرئ القيس في رحلته الى القسطنطينية ليبحث من خلالها عن الخروج من هذا الزمن الرديء ، وينعكس اخفاق الشاعر الجاهلي على انساننا المعاصر في الخلاصة البسيطة ، ويصطدم امام المفاجآت التي تنبعث من الواقع المريض :

... كان ملء الطريق الى الحلم ، فاجأه
السيف في صوت قبرة ، فاجأته الرمــاح
على شكل اكليل غار ، وفاجأه المــوت
في الهيئــة الاخويــة .. (ص ١٨)

وتبدأ الآفاق تسترد دكنتها شيئا فشيئا ويتحول الواقع الى مــوت مستمر وتدوس عجلاته ما تبقى من خصب واحلام ويعود الشاعر يعزف على اوتار الثنائية غير المتكافئة ، فتنمو الصحارى والرمال ، وتضيــق الارض بلاجئيها ، وتلد الرمال نخيلا من الدم العقيم ، وتسقط الآفاق فيموت الازرق ، ويتبادل الاحمر والاسود احتلال ما تبقى من جهات الارض .

وهي الارض حمــراء ، ســوداء ،
مــن شرفة الحلــم
حتى انطفاء العواصم ، (ص ٢٢)

وتتواكب الثنائية بين الحلول والتحول ، فيحل الخصب في القطاف الذي يتحول بثماره الى الموت الذي ينضج في كل الفصول

وهي الارض حمراء ، حمراء
سوداء ، سوداء
فصل من الدم ينضج
يــورق فصــل
هــو الخصــب :
كل الفصول قطــاف
وكل التوابيت ملأى
وكل البلاد توابيــت
من أول حتى خواتيمها
مــن فــم البئــر ،
حتــى فــم البندقيــة (ص ٢٣)

ويؤدي كل ذلك في ختام القصيدة الى النتيجة المأساوية ، وهي موت امرىء القيس مغتربا دون تحقيق حلمه ، وهذا بديل موضوعي عن انساننا المعاصر وبخاصة المثقف منه . وقد استطاع الشاعر ان يوظف الرمز التراثي وأن يلم بأبعاد التجربة المعاصرة .

وليست قصيدة « الازرق والاحمر » التي سميت المجموعة بهــا بعيدة عن القصائد التيسبقتها ، فمنذ المطلع يحاول الشاعر انيوقظ حلمه

الازرق القلق . الذي .. حين يقوم ، يمشي بتثاقل ليرتمي في احضان الاحمر ـ الواقع المعاصر ، ولا تجدي شيئا صرخات الشاعر ـ بالمثقفين وتكرار الامل الذي يتكرر اختناقه في كل مرة :

امسكت خابيتي على شفتي
وهتفت بالالوان :
« يا سيدي الاخضر »
« يا سيدي الاصفر »
« يا سيدي الـ ... »
« يا ... »
ماتت الالوان
وعلى الثابت ، حبث حلقي ،

عرس الاحمر (ص ٣٠)

ويستعيد الشاعر توالد الامل من اليأس والفرح من الاحزان والحلم من الواقع والخصب من اليباس مرة اخرى بوساطة ثنائية توليدية جدلية (انظر ص ٢١ ـ ٢٢) ويعيش لهذا الامل الضعيف الذي رباه ورعاه ، ولكنه يعود فيفاجأ بالاحمر يتفجر ينابيع في المدن والاعياد والوطن ، فيحصد فرح الاطفال :

... فجاة ينفجر الاحمر ،
يفشي معطف النار المعن
ويطوف الموت في الاعياد : هذي
شفة ، هذي ذراع ، هذي جمجمة ،
ساق ، بقايا رئة ، هذي شظايا

جسد كان ، هنا دفتر طفل رسم
البحر ، هناك القلم الازرق والممحاة ،
والوردة ، تلك الخصلة الشقراء
ذاك الـــدم ،
ذاك الـــدم ،
ذاك الـــدم ،
... الاحمر ينداح على صدر الوطن (ص ٣٣)

ويكاد هذا الاحمر يودي بطفل الشاعر الذي لا يبقى امامه سوى ان يصرخ بأمله ليفر ويتنكر لهذا الاب الذي ما استطاع حمايته .

وتتكرر المأساة في « عاش القرنفل ــ مات القرنفل » فيلتهم اليبــاس الاحضر (ص ٤٠) ، ولا يستطيع الشاعر ان يرفع صوته ليغني لهــذا القرنفل . وبخاصة انه قادم من بلاد المجازر وكيف يغني وكل ما حوله دم وانين وصراخ :

آت تغنــي ؟ مــن ؟
دم الاشجار في بــيروت :
أم رقصها المذبوح في الطرقات
أم طائر الموت الذي يجثو على الشرفات (ص ٤٦)

وكيف يغنــي ؟ و

الموت فارس هــذه المــدن
تجرى بــه فرس مجنحة
بالنفــط والكبريت

سـوداء مسرجـة
بعباءة الوطـن
عاشـق القرنفـل
مـات (ص ٥٠)

ولـ « بيروت » نصيب وفـير في قصيدة « الحرب » ، فهي آخـر الشرفات . أما « الزرقاء » ، اطول قصائد المجموعة (٨١ ـ ١٢٩) فهـو يكثر فيها من الغناء ، ولكنه الغناء الشجي المليء بالصور والقص والسرد والحوار ، وهو غنـاء درامي اكثـر ممـا هـو غنـاء ذاتـي (انظـر الصفحات ٩٣ و ٩٤ و ٩٦ .. الخ) ؛ ولا يخلـو هذ االغناء مـن مرايا تصويرية موضوعية من مثل قوله :

جثـة اسمهـا الشرق
معلقة بالنعش بين تهطل سماء
وتضرع أرض
والايدي جائعـة
دماء تأكل الايدي
وقمـرا اصفـر
تجوع أكثر ، فتاكل السوط
السـوط
خبـز الشـرق
جثـة اسمها آسيـا
خريجة متفوقة مـن
مصاهـد
الخضوع (ص ١٠٢ ـ ١٠٣)

تقول المجموعة شيئا واحدا (باستثناء قصيدتي بنغازي والوريث) مفادة ان الاحمر يأكل الازرق في تصارعهما ، ويأكل اليباس ما تبقى من الخصب ، ويبتلع الحلم الواقع ، ويلتهم الموت الحياة ، والماضي اكثـر جمالا من الحاضر . وتعتمد المجموعة في هذه الثنائيات على صراع درامي متوتر تتناوبه لحظات غنائية شفافة ، متخذة الالوان رموزا تارة ، مستفيدة من الارث العربي والثقافة التي لا تفسد سيرورة النمو العضوي واكتماله . ونستطيع ان نقول : ان مجموع هذه القصائد يشكل قصيدة واحدة تتنوع هنا وهناك لتكون القصيدة ـ الديوان(١) .

١ ـ كان من المستحسن ان يكون ترتيب القصائد كما يلي : الرحلة ـ الظلال ـ عاش القرنفل ـ مات القرنفل ـ قصيدة للحرب ـ الازرق والاحمر ـ الزرقاء .

كتاب الشهر

التحليل النفسي، اليوم

هل يجيب على متطلبات العصر ؟

تقديم وتحليل :
يوسف قلعجي

ما هو واقع التحليل النفسي اليوم؟ وماهو واقع كل تيار تحليلي ؟ والى اي مدى يجيب التحليل النفسي اليوم على اسئلة العصر ؟ وما هي نقاط الوصل والفصل بين التيارات النفسية المتعددة ؟

من أجل الاجابة على هذه الاسئلة يفتتح الغلاف الابيض لكتاب « التحليل النفسي ، اليوم »(١) عن ندوة جمعت اربعة من علماء التحليل النفسي جاء كل منها ليمثل تياره : ميشال كازيناف (فرويدي) ميشال مونترلاي (لاكانية) بيار سوليبه (يونغي) بيار فيديدا (فرويدي) ولقد صب الجميع في رحلة بحث عن ميناء تثمر فيه معطيات التحليل ولا تتحول حطبا ، ولقد ادار دفة السفن وحمل بوصلة البحث عن افق « ميشال كازيناف » الذي ينتمي الى المدرسة الاصل : الفرويدية .

يفتتح «كازيناف» الندوة بكلمة توجز تاريخ التحليل على الشكل التالي:

« منذ انطلاقته ، مع مطلع هذا القرن ، شهد تاريخ التحليل النفسي اضطرابا وخاصة في بداياته حيث انقسم الى فرق ومدارس : تيار « غوستاف يونغ » الذي اراد الكشف عن اللاوعي الجماعي ، تيار « وليم رايخ » الذي التزم بأفق ثوري ، تيار « ادلر » الذي اعطى الاولوية لعقده النقص ، تيار « ميلاني كلين » الذي ابرز الصفة الفطرية لتعلق الرضيع بصورة الامومة ، **حتى اصبح التحليل النفسي بسبب تعدد مدارسه اشبه ما يكون بسديم للنظريات التي لا يوجد بينها اي قاسم مشترك الا مفهوم اللاوعي ،** حتى ان هذا المفهوم اذا اخضع للتفسير ادى الى تفرق المدارس التي تختلف في تحديده وتفسيره » .

هكذا يفتتح « كازيناف » هذا اللقاء « التحليلي » انطلاقا من الواقع الذي اشار اليه مع محاولة تقديم تفسير اولي : « يبدو لي ان الفروقات تظهر بين الذين يعتقدون بضرورة قانون الاب وبين الذين يثقون بفضيلة الام » وانطلاقا من هذا التفسير الاولي يسمي « كازيناف » التيار الاول وهو التيار الفرويدي بالتيار المتشائم ويسمي الثاني اي التيار المنحدر من « يونغ » بالتيار المتفائل الذي يقر بوجود معنى للحياة . وحتى لا يكون هذا التمييز تعسفيا يبين « كازيناف » ان ثمة فروقا في اسلوب العلاج

(1) « La Psychanalyse aujourd'hui » : Pierre Fédiad , Michél Montrlay , Pierre Solié , Michel Cazenave . Ed. Ima 69 , Paris .

تتجلى خاصة ضمن الفرع الفرويدي : « نستطيع الان ، في الوضع الحالي للتحليل النفسي استخلاص ثلاث تيارات مهيمنة : تيار الفرويدية الجديدة التيار اللاكاني ، التيار اليونغي ، ويطلب « كازيناف » من العلماء المشاركين في الحوار ان يعرف كل بنفسه وبين علاقته بالمدرسة التي ينتسب اليها واسلوبه العلاجي .

عند هذه النقطة الافتتاحية للحوار نتوقف لنشير الى ان اهمية هذا الكتاب ترجع لا الى الاجوبة ، اي الحلول المقدمة للمسائل التي يعانيها واقع التحليل النفسي اليوم ، بقدر ما تتجلى في عرض المسائل وفي تعبير كل من العلماء عن وضعه العلمي وعلاقته بالنظرية التي يتبناها واسلوبه العلاجي ، فالعلماء الذين يعبرون في هذا الكتاب ببساطة وعفوية وتواضع عن واقعهم العلمي ومعاناتهم العلمية يفتتحون من خلال اسئلتهم ومعاناتهم واحيانا من خلال تعثرهم وسهواتهم وارتباكهم وقصورهم افقا ارحب واعمق لمستقبل التحليل النفسي ، اذا كنا نجد ان التقدم العلمي يدفعه ويحققه البحث الدؤوب وان ما يميز الروح العلمية هو التساؤل والتواضع

ولعل الردود الاولى التي قدمها العلماء كاجوبة على سؤال « كازيناف » الاول ، وهو ان يعرف كل بنفسه وبين علاقته بالمدرسة التي ينتسب اليها تبين معاناة هؤلاء العلماء وعفويتهم ورغبتهم بحوار قد يساعد على تجاوز حاضر التحليل النفسي المتازم :

بيار فيديدا : ان فكرة تحقيق هذا اللقاء تعني ان المحللين يبحثون عن توافقات نظرية وان لحظات رفع التناقضات في ما بينهم هي لحظات خصبة للحوار ، صحيح انه يوجد بعض المحللين الذين اعدوا اعدادا دوغمائيا ، لكننا لا نحب مناقشة هؤلاء لان السجالات ضد اليونغية او ضد الفرويدية او ضد اللاكانية هي عمل من يطلبون باختفاء التحليل النفسي ، بالعكس ، اشعر ان الممارسة التحليلية هي في الان نفسه ممارسة تقنية وممارسة نظرية ، هذه الممارسة التحليلية تضع المحلل في مواقف قد لا

يستطيع ان يمتنع فيه عن تقبل الاسئلة التي يوجهها اليه اقرانه او اي انسان يفكر . فاذا كنت اقدم نفسي هنا بقولي انني فرويدي فيجب علي ان اضيف ان ما يهمني ـ بفضل فرويد ـ هو علاقتي بالنظرية التحليلية

ميشال كازنياف : لقد تحدثت عن السجال ، وليس السجال هنا هو ما يجمعنا ، اكرر سؤالي بوضوح فاقول ان ما اطلب اليك تحديده (لمزيد من الدقة) هو الطريقة التي تتموقع فيها اثناء النشاط التحليلي ، فاذا كنت تفضل السؤال بطريقة اخرى اقول لك : كيف تفهم الممارسة التحليلية وكيف تضع نفسك امام النظرية ؟

بيار فيديدا : « عندما ياتي احدهم لرؤيتي اعرف مباشرة اذا كنت استطيع الاهتمام به او لا ، ان ما ادعوه الممارسة للعلاج التحليلي هو وظيفة رمزية للموقف القائم بين المحلل والمحلل ، احدهم ياتي الى العيادة على امل ان يغير له المحلل شيئا من حياته » .

ميشال مونترلاي : « الحق معك ، انه انطلاقا من ممارستنا يجب ان نتكلم تعرفون ان القاعدة الاساسية في التحليل النفسي هي ان نقول للشخص في المرة الاولى ان يتمدد « قل كل ما يرد الى ذهنك » انني كمحللة اتعامل مع الكلمات ، لماذا ؟ لان اللاوعي نشاط غامض يعمل مع الكلمات ايضا ، هذا هو الافتراض الفرويدي قبل ان يكون افتراضا لاكانيا » .

بيار سوليبه : « اللاوعي هو مكان وزمان اللامكان واللازمان . وهذا ما يقوله الخطاب الفرويدي لفيديدا واللاكاني لميشال مونترلاي ؛ ولكن حيث انطلق انا كيونغي فمن النقطة

التي احيل فيها عملية فك الترميز لكلمات اللغة الى صور ، انني كيونغي ارتكز الى الميتولوجيا اكثر من رجوعي الى اللغة ، ان التيار الفرويدي ـ اللاكاني يهتم بالدال اي كلمة شجرة مثلا بينما اليونغي يهتم اكثر بالمدلول اي بصورة الشجرة ، اي بادراك معاش ، محسوس ، بعاطفة » .

التحليل النفسي كعلم علاجي لا يستطيع تجاوز تقنيته العلاجية التي ارساها فرويد والتي تنطلق من ارضية العلاج ، وهذه مسلمة لا يختلف حولها العلماء كما راينا لكن اختلافاتهم تبدأ مع اسلوب مباشرة هذه التقنية ، اسلوب مقاربة اللاوعي ، وطريقة تفسير رموزه وهذا ما حدا بميشال كازيناف الذي يدير الحوار الى ان يقول :

« بسماعكم تتكلمون انتم الثلاثة يتبع لدينا انطباع انه توجد بينكم فوارق اساسية تتجاوز كثيرا المشاكل البسيطة للممارسة او الاسلوب التحليل ، اننا نلحظ ان ممارستكم تفترق لان نظرياتكم تختلف في اساس ادراكها وانصاتها الى اللاوعي » .

ويتضح ان اختلاف التيارات التحليلية النفسية حول مفهوم « اللاوعي » امر واقع يكاد يكون علامة لحاضر التحليل النفسي ، وللوصول الى معرفة الفارق النظري لمفهوم اللاوعي يصبح السؤال الموجه للمحللين .

« ما هو الموقع الدقيق الذي تعطونه للنظرية : النظرية الجاهزة ، والنظرية التي تتكون اثناء العلاج واية علاقة ترونها ، تعيشونها ، وتقومون على تجربتها بين النظرية والممارسة ؟

ومن خلال الردود التي تتالت للاجابة على هذا السؤال يتوضح معنى الاختلاف الذي يكمن في فهم كل مدرسة للاوعي ، ففي الاجوبة حيث يعرض محلل اسلوبه العلاجي وعلاقة هذا الاسلوب بالنظرية من ناحية وبالتجربة

من ناحية اخرى ، يستطيع القارىء ان يدرك بدقة الاختلافات في كيفية رفع الكبت التي هي هدف التحليل ، وفي معايشة المحلل لعملية مقاربة لاوعي المريض من خلال الكلمات او الصور عبر التداعي الحر والاحلام التي هي النهج العلاجي ثم من خلال معايشة المحلل لعملية « التحويل » التي هي مفتاح المسار العلاجي ويبرز من خلال الاجوبة ان الاختلافات التي تبرز على هذا الصعيد العلاجي ترجع الى **اختلافات في النظرية ، ولكن اية نظريـة ؟**

نتوقف عند ملاحظة « لبيار فيديدا » قالها في محاولة تبيان الموقع الدقيق الذي يعطيه للنظرية ، وترجع اهمية هذه الملاحظة الى انها تفسر لنا جزءاً كبيراً من ازمة التحليل النفسي الحاضرة ، كما توضح ابعاد المسار الذي اتخذه لقاء المحللين هذا عندما وصل الحوار الى تبيان الفروقات النظرية بين التيارات التحليلية ــ النفسية .

يقول « فيديدا » بعد ان يميز مجالين للنظرية : المجال الاول :

« ان النظرية التحليلية اداة تواصل ، اداة مهنة ، وهذا ما يمكن تسميته النظرية من الدرجة الاولى . المجال الثاني هو التأمل الابستمولوجي الثقافي ، النظرية في هذا المجال تأخذ بالاعتبار اللاوعي ولكن غرضها ليس اللاوعي : ان غرضها في هذا المجال هو فلسفة وان جزءاً من النظرية المسماة تحليلية هي حاليا فلسفة تأخذ بالحسبان اللاوعي وتاريخه وطرق الانصات اليه ، وبهذا المعنى هي نظرية من الدرجة الثانية » .

واذا كان « فيديدا » الفرويدي متنبها لضرورة التمييز بين هذين المجالين حتى لا تضمر دقة التحليل النفسي في التعميم الفلسفي فان سائر المحللين : اليونغي واللاكاني والفرويدي الجديد هم اقل انتباهـا وهذا ما يجعلهم يخلطون بين هذين البعدين ، وفي هذا الخلط ربما تكمن الازمة الحاضرة للتحليل النفسي ، والتي يعبر عنها المسار الذي اتخذه الحوار اذ عند النقطة التي انتهى فيها المحللون من توضيح ومناقشة

اسلوبهم الملاجي ، انتهى الحوار الخاص بالتحليل النفسي اي انتهى البحث حول ما اسماه « فيديدا » نظرية من الدرجة الاولى لينتقل الحوار الى النظرية من الدرجة الثانية ، اي التأمل الابستمولوجي حول التحليل النفسي ، واذا كان « فيديدا » مدركا **ان الانقطاع بين فرويد ويونغ هو انقطاع ابستمولوجي ادى الى انقطاع تحليلي** فان مأساة الانقطاع هذه التي افرزت تعدد التيارات وتباينها وافرزت بالتالي ضمور تطور التحليل النفسي وعجزه عن مواكبة مسائل العصر ، ترجع الى عدم التمييز بين النظرية التحليلية والنظرية الابستمولوجية ؛ لكن « فيديدا » الذي لم يقدم ضرورة هذا التمييز كحل الا من خلال ما نستطيع استنتاجه من اسئلته وتساؤلاته حول اليونغية . ولقد اتخذ الحوار الابستمولوجي حوالي نصف الكتاب وهذا الانعطاف في الحوار نحو التأمل الفلسفي حول التحليل النفسي بما حمله من تخبط وارتباك وتباين فكري يدل ايضا على العفوية والتواضع الذي قارب فيه اعلماء موضوعهم والذي هو واقع التحليل النفسي اليوم ويدل على قصورهم الذي يحاولون تجاوزه ولعل السؤال الذي يحضرنا بعد قراءتهم هو التالي : أليس هذا التصور في التأمل الفلسفي ينتج عن تصور في التطور التحليلي ؟ ومن المزج بين المجال التأملي والمجال التحليلي ؟ الا ترجع ازمتهم وارتباكهم الى تخلفهم عن « فرويد » الذي ميز بين التأمل والتحليل وليس الى تجاوزهم فرويد على هذا الصعيد ؟

عند منعطف الحوار التأملي يقول « فيديدا » في محاولة توضيحية « ان يونغ (الذي لا أعرف كل كتاباته) رمز الحلم القديم في تشكلات ميتولوجية اولية واسس نظرية عن الثقافة اكثر من تاسيسه لنظرية تحليلية ــ بطريقة ثانية اقول ان الواقعية اليونغية تستقبل الواقع الهذياني للصور . فهل اكون مخطئا اذا قلت ان المحلل اليونغي ليس محللا نفسيا ولكنه ميتا ــ تحليلي ،وما قيمة المراجع الميتولوجية التي قال بها يونغ اذا اخذنا بالاعتبار تطور البحوث في الميتولوجيا والايديولوجيا وتاريخ الاديان منذ العشرين عاما الاخيرة ؟ »

وفي الرد الذي اعطته « ميشال مونترلاي » اللاكانية نلاحظ محاولة قراءة تاملية ليونغ هي من رواسب التامل اللاكاني اكثر من كونها تحليلا لاكانيا .

تقول ميشال مونترلاي : « في كتابه (يونغ) « سيكولوجية اللاوعي » حيث لا تزال احدى قدميه عند فرويد يقول ان المريض يجب ان يساهم ضرورة في عملية التنقيب عن اللاوعي الفردي وليس سوى في وقت لاحق يستطيع ان يترك نفسه ليؤخذ باللاوعي الاخر ، لانه بالنسبة ليونغ ، ولاجل احتمال تجربة اللاوعي الجماعي ، يجب على الفاعل ان يمتلك صلابة وقوة لا يمكن ان تكون الا اخلاقية ، دونها يغرق بكل المعلومات التي تأتيه من ليل الازمنة ، هذا ما فهمته ، والذي يوحي لي بهذا التدريب حيث التزهد والاخلاق لديهما وظيفة وضع حد لكثير من المعنى ، وهذا ما كان له مكانة عند المتصوفة ، وايضا في كل خلق ابداعي ، والى اي مدى هذا المسار يخص او يهم المريض ؟ اليس التهيؤ التحليلي يصنع هكذا ، اليس وبتقشف يصنعه اثنان ؟ »

ان هذا الانزلاق الى التامل دون ادراك ما يميز التامل عن التحليل يتضح جليا في رد بيار سولبيه اليونغي الذي رد على كلمة « ميشال مونترلاي » اللاكانية ، ففي جوابه يتضح عجزه كيونغي في الدفاع عن اليونغية كمدرسة للتحليل النفسي ، لذا نراه يجد في بنيوية « لاكان » وفي تفسير « اللاكانية » فميشال مونترلاي مخرجا لازمة يعانيها وتعبر عنها طريقته في الاجابة ، كما ان ملاحظة « فيديدا » قد هزته ودفعته الى اعادة قراءة يونغ في هذا اللقاء بمساعدة المتحاورين ، يقول :

« اشكرك ميشال مونترلاي لمرافعتك جيدا عن قضية يونغ ، انت تقدمين هنا جوابا هاما على السؤال الذي طرحته اي ان الاخلاقية عند يونغ تأخذ مكان « التقطع » اللاكاني . ولكن هل هذه مسيرة تحليلية ام مسيرة تزهدية ؟ »

« في فصل يحمل عنوان « التضحية » من كتاب يونغ الصادر عام ١٩١٢ « رموز وتحولات الليبيدو » والذي سبب الانفصال الحاسم عن فرويد ، نجد الكثير مما يقال حول التقطع ، الخصي ، الاخلاقية ، التضحية اما بالنسبة لما قلته حول اللاوعي الفردي والجماعي عند يونغ فان يونغ لا يؤكد انه لا يشجع على الانتقال من الواحد الى الاخر ولكنه ينصحنا ان نبقى فرويديين قدر الامكان في القسم الاول من التحليل ، واضيف أيضا من ناحيتي ، في القسم الاول من الحياة » .

وجوابا على سؤال « لفيديدا » هل تعتقد ان كلمة اللاوعي الجماعي صالحة اليوم يرد « سوليبه » قائلا ان « لا ، انا معك ، غير صالحة اليوم » دون شك كان ممكن قبولها قبل دوركهايم وعلم الاجتماع ، قبل فريزر والانتولوجيا » .

ولننظر في مقطع حواري يحاول قراءة تأملية ليونغ وبعده او قربه من العصر :

بيار فيديدا : انه وفي عصرنا لم يعد هذا التعارض بين الفردي والجماعي مقبولا .

بيار سوليبه : نعم ، هذا صحيح .

ميشال كازيناف : نستطيع ان نكرر تاريخيا الاسباب التي قادت يونغ الى الكلام عن « اللاوعي الجماعي » ، لقد حان الوقت لتجاوز هذه اللغة التي تبدو لي جذرا للعديد من الاختلاطات . عندما يتكلم عن هذا اللا وعي نلاحظ ان يونغ لا يرجع الى المجموعة البشرية . انه لا يقول ان الانسانية باكملها تمتلك جوهرا لا واعيا ولكنه يبحث ليشير الى البنى العالمية النفسية التي هي دوما نفسها ومتشابهة .

ميشال مونترلاي : ان التعارض الاساسي عند يونـغ هو بين الفردي والكوني عندما حدد النماذج الاولية كاشكال للتنظيم . ولكنها اشكال فارغة ودون محتوى . عندما حدد اللا وعي كحقل بالمعنى الذي يستعمل فيه الفيزيائي المعاصر هذا المصطلح ، وعندما قدم فرضية المعرفة المطلقـة (التي اخذها من ليبنتز وهيجل والفلسفة الرومانسية الالمانية) واضح ومؤكد انه لم يتكلم عن لا وعي جماعـي بالمعنى الحرفي للكلمة اي اثني او اجتماعي ولكن عـن حقل ثقافي تصعيدي يتسامى على كل معرفة ممكنة » .

لم يستطع المتحاورون تقديم مصطلح يناسب اللا وعي الذي عنـاه يونغ ، كما لم يستطيعوا تبيان علاقة هذا اللاوعي باللاوعي الفرويدي ،لان ما عناه كل من فرويد ويونغ بالنسبة للاوعي متباين .

وفي محاولة منه لتبيان ان تطور التحليل النفسي مرهون بالتحليل اكثر من التامل يذكر « فيدبدا » بالنقد الذي وجهه « لاكان » لليونغية فيقول ان « لاكان » يصف « يونغ » بانه يريد ان « يقول الحقيقة ، وهـذا هو خطاه ، انه لم يقل غير هذا » .

ويضيف « فيدبدا » : « ان « لاكان » يريد ان يقول ان يونغ ، لانه اراد ان يفهم كل شيء ، ان يحدد كل شيء ، فقد رؤية البعد الجزئي » .

« تساءل « لاكان » ، الم ينسى « يونغ » المشغول بالحكمة و «الطريق» والاخلاقية بمرور الايام ان يأخذ على عاتقه الجانب الكاذب ، الابلـه ، البائس للا وعي ؟ واذ اكانت اخلاقية المحلل هي اخلاقية علمية فهـي لا تشيح النظر عن رؤية ما هو موجود » .

وبهذا الصدد يبين « فيدبدا » اهمية « لاكان » :

« ان جراة « لاكان » تكمن في تحليله للا وعي ، لقد اخذه على عاتقه حتى اصبح هو كليا اللا وعي . ولكن ما ان لم يعد يربط شخصه وفكره ببنية اللاوعي وعمد الى طرح فكره كفلسفة وتعليمه كفلسفة حتى انتج نظرية راكدة للا وعي » .

* * *

من خلال هذا النقد اللاكاني ليونغ والنقد الفرويدي للا كان يتضح ان حاضر التحليل النفسي مصاب بالاغماء بسبب غلبة الفلسفة على التحليل النفسي داخل التحليل كاداة علاج وكتامل حول هذه الاداة . وهذا ما اخر كما يبدو بمسار « يونغ » وبمسار « لاكان » وسواهما واذا كان جميع المتحاورين قد اختتموا هذا اللقاء بضرورة الحوار في ما بين العلماء لتجاوز عجز التحليل النفسي اليوم عن مواكبة متطلبات العصر . واذا كان بيار سوليه قد اعترف « يجب ان نعترف انه في العلاج النفسي خلال العشر او الخمسة عشرة عاما الاخيرة حيث استنفدت آخر الصيغ الرمزية للحضارة الابوية ، ثمة ضرورة لاعادة صياغة ميتا ـ نفسية جذريا . وان الميتا ـ نفسيات (الفرويدية ـ واليونغية ـ واللاكانية لا تجيب ابدا وهذا ما اخشاه على الطلب العلاجي لزمننا الحاضر » .

فان ملاحظة « فيديدا » تبقى الاقرب الى الواقع والمنطق « يوجد هنا انزلاق لم يوضح ابدا بين ما اسميته درجتي النظرية لان الانسان لا يمكن اختصاره الى لا وعيه وهذا ما كان يدركه « فرويد » جيدا » .

* * *

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة

التفاحة

مجموعة قصص

انيس ابراهيم

* * *

سر الرمح المنقوش

رواية للفتيان

دياب عيد

* * *

بسبوس الاعرج

قصة للاطفال

محمود البكر

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة

آلام وأحلام

شعر

ابراهيم سلمان

* * *

ثمار البيادر

شعر

فايز خضور

* * *

عرس حلبي

وحكايات من سفر برلك

ثلاثية مسرحية

عبد الفتاح رواس قلعه جي

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة

تاريـــخ المســـرح

الجزء الثالث

تاليف

فيتو باندولفي

ترجمة

الاب الياس زحلاوي

* * *

ارتحال الى اعماق الكون

المهندس فايز فوق العادة

* * *

المثقفون والتقدم الاجتماعي

عدد من المؤلفين

ترجمة : شوكت يوسف

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي

